وأشرفِ خُتولةٍ وعمومةٍ ، ميسَمِي الصَّوْن ، وَشِيمَتِي الهَوْن ، وَخُلُقِي نِعْمَ الْعَوْن ، وبيني وبين جاراتي بَوْن ، وَكَانَ أَبِي إذا خَطَبَنِي بُنَاة المجدِ ، وَأَرْبابُ الْجِدِّ ، سَكَّتُهُمْ وَبَكَّتُهُمْ ، وَعَافَ وُصْلَتَهُمْ وَصِلَتَهُمْ ، وَاحْتَجَّ بأَنَّه عَاهَدَ اللهَ بِحِلْفَةٍ ، أَلاَّ يُصَاهِرَ غَيْرَ ذِي حِرْفَةٍ .

* * *

[ذكر الإسكندرية]

مدينة عظيمة من بلاد مصر ، بناها الإسكندر ذو القرنين ، وهو الذى مشى مشارق الأرض ومغاربها . قال السدّىّ : لما سأل أهلُ الكتاب النبىَّ صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين ، قال : سأخبركم كما تجدونه مكتوباً عندكم : إنَّ أول أمره أنه غلام من الروم ، أُعْطِىَ مُلْكاً ، فسار حتى أتى ساحل البحر من أرض مصر ، فابتنى عندها مدينة يقال لها الإسكندرية .

وقال الهمذانىّ : ذو القرنين ينسب إليه التاريخ قبل الإسلام ، ومؤدّبه أرسطاطاليس الحكيم ، وكان مُلْكه الذى بلغ فيه أقصى المشرق والمغرب خمسة عشر عاما ، والإسكندرية لما بناها رخّمها بالرخام الأبيض جدُرها وأرضها ، فكان لباسهم فيها السواد من نصوع بياض الرخام ، وإذا كانت ليلة مقمرة يُدْخِل الخياط الخيط فى خَرْق الإبرة من بياض رخامها .

وقيل : إنها مكثت سبعين عامًا لا يدخلها أحد إلا وعلى بصره خرقة سوداء من بياض جِصّها ورُخامها ، ولم يحتج لها فى تلك المدة إلى سراج بالليل من ضيائها . وقيل : كانت ثلاث مدن يحيط بجميعها سور .

قال ابنُ جبير: ماشهدنا[1] بلداً أوسعَ مسالك ، ولا أعلى بناء ، ولا أعتق ولا أحفل من الإسكندرية ، وأسواقها فى نهاية الاحتفال ومن أعجب ماقى وصفها أن بناءها تحت الأرض كبنائها فوقها وأعتق ، لأنّ الماء إذا جاء من النيل يخترق جميع آبارها وأزقّتها تحت الأرض ، فتتصل الآبار بعضها ببعض ، ويمدّ بعضها بعضاً ، وعاينّا فيها من سوارى الرّخام وألواحه كبراً وعلوًّا واتساقاً وحسنا مالا يُتخيَّل إلا بالوهم ؛ حتى إنك تلقى بعض سواريها يغصّ بها الجوّ صعوداً لا يدرى معناها ، ولا لأىّ شىء وضعت إلا مايتحدّث به أنه كان عليها من قديم الزمان مبانٍ للفلاسفة وأهل الرّياسة ومن أعظم عجائبها المنار ، آية للمتوسّمين وهداية للمسافرين ، لولاه ما اهتدوا فى البحر إلى برّ الاسكندرية ، ويظهر على أزيد من سبعين ميلاً ، ومبناه فى فى نهاية العَتَاقة والوثاقة طولاً وعرضاً ، يزاحم الجوّ سموًّا وارتفاعا ينحصر عنه الوصف ، وينحسر دونَه الطَّرف ، الخبر عنه يضيق ، والمشاهدة له تتسع ، ذرعْنا أحَدَ جوانبه الأربع ، فألفينا فيه نَيِّفاً وخمسين باعا ، ويذكر أن فى طوله أزيد من مائة وخمسين قامة

وأما داخله فرأى هائل ، اتساعَ معارج ، ومداخِل[2] وكثرة مساكن . حتى إن الوالج فى مسالكه ربّما ضلّ . وفى أعلاه مسجد موصوف بالبركة ، يتبرّك الناس بالصلاة فيه ، طلعنا إليه ، وشهدنا من شأن مبناه عجباً لا يستوفيه وصف واصف ، والله تعالى لا يخليه من عزة الإسلام .

* * *

قوله «عشية عريّة» ، أى باردة . يفضّه : يفرّقه . ذوى الفاقات : أهل الفقر والحاجات . عِفْرية : يقال رجل عِفْرية وعِفَرّ وعِفِرّىّ ، إذا كان صحيحا شديداً موثّق

(١) رحلة ابن جبير ٩ ، ١٠ بتصرف .
(٢) ط : «دواخل» ، وما أثبته من ا ، ب وابن جبير .

الخلق ، أخذ من عَفَر الأرض ؛ وهو التراب، أى من عَلِق به عفره بالأرض ومنه ليث عِفِرّين ، أى ليث ليوث ، مُعَفِّر لفريسته. قال الخليل : رجل عِفْرٌ بيّن العفارة، إذا وصف بالشيطنة ، والعِفِّير أيضاً : الظّريف الكيّس ، ويقال للشيطان : عِفْرِيت وعِفْرِية ، وهم عَفارية . وقرئ : ﴿قال عِفْرِيَةٌ مِنَ الجِنِّ﴾[1] ، وفى الحديث : « إن الله ليُبْغِض العفريت النُّفْريت » ، قيل هو الجُموع المَنُوع .

وقال أبو عثمان النّهدىّ : دخل رجل عظيم الجسم على النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال له : متى عهدُك بالحُمّى . قال : ما أعرفها ، قال : فبالصُّداع ؟ قال : ما أدرى ماهو ! قال : أفأصِبت بمالك ؟ قال : لا ، قال : أفرُزِئت بولدك ؟ قال : لا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله يُبغض العفريت النُّفريت » ، وهو الذى لا يرزأ فى بدنه ولا يصاب فى ماله .

وقوله : « تعتله » ، أى تسوقه بعنف ، وكذلك تدُعّه . مُصبية : لها صبىّ . جرثومة : أصل ، وكذلك أرومة . ميسمى : علامتى . الصَّون : الصيانة والانقباض . شيمتى : طبيعتى . الهوْن : الرفق . بون : بُعْد . بناة : جمع بانٍ ، والمجد : الشرف الضخم ، وأصله من الإبل المواجد ، وهى التى امتلأت بطونُها من الرّعى وعظمت . وأمجدَها راعيها ، إذا رعاها بحيث تمجُد ، ومجدُت وهى تمجُد : رعت فامتلأت . وحكى الأصمعىّ قال : أتيت شُعبة يوما ؛ وعنده حماد بن سلمة ، وهما يتكلّمان فى حديث فقال شعبة : يا أبا سلمة ، هذا الفتى الذى ذكرت لك ، فقال حماد : يابنىّ كيف تنشد بيت الحطيئة : « أولئك قوم . . » ؟ فابتدأت القصيدة من أوّلها :

ألا طرقتْنا بعد ماهجعتْ هندُ وقد سِرْنَ خَمْساً وائلات بها الجِدّ[2]

(١) هى قراءة عيسى الثقفى ، وانظر تفسير القرطبى ١٣ : ٢٠٣ .
(٢) ديوانه ١٩ ، ٢٠

إلى أن بلغت قوله :

أولئك قومٌ إن بنوْا أحسنوا البِنَى وإن عاهدوا أوفَوْا وإن عَقَدُوا شدُّوا[1]

فقال لى حماد :يا بنىّ إن العرب تقول : بَنَى يبنِى بناء فى العمران ، ويقولون فى الشرف : نبا يَنْبُو نَبْوًا ، فأنشِد هذا البيت « أحسنوا البِنَى » ، فعرفت قَدْر حمّاد من ذلك فما كنت أنشد إلا كما لقّننى .

قوله: «أرباب الجِدّ» . أى أصحاب السعد والمال ، والعرب تقول : لفلان جَدٌّ فى الدّنيا ، أى حظ وبخت ، قال امرؤ القيس :

* وقاهمْ جَدُّهم ببنى أبيهم[1] *

وقال آخر :

عش بجَـدٍّ ولا يضرُّكَ نَوْكٌ إنما عيشُ مَنْ تَرَى بالجدودِ

وجدّ الرّجل :صار له جَدّ ، وأجدّه الله : جعل له جَدًّا ، وما كنتَ ذا جَدّ ، ولقد جَدِدْتَ تجِدّ ، ورجل جديد: حظيظ من الجَدّ والحظّ .

أبو عبيد قولُه : « ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَد»[2] ، أى ولا ينفع ذا الغنى منك غناه إنما تنفعه طاعته . يعقوب : أى من كان له حظ فى الدنيا لم ينفعه ذلك فى الآخرة .

بكّتهم : قطع كلامهم وأهانهم . عاف : كره . وصْلتهم : اتّصالهم به ، والوُصْلة: سبب التواصل،وهى فى الآدميين مايصل واحداً بآخر من حُبٍّ وغيره، والوَصْلَة بالفتح: ما جعلته بين عود وعود ، أو حبل وحبل ،فوصلْتهما به .صلتهم: عطيتهم . حِلفة : يمين . يصاهر : يخاتن . حِرْفة : صنعة ومكسب ، وهى فِعْلة من الحُرف وهو الحرمان ، والمحارَف :المحروم ، كأنّ صاحبها منع الرزق ، فصار يعالج كسبه .

---

(١) ديوانه ١٣٨ و بقيته :

* و بالأشْقَيْنَ مَا كانَ العِقَابُ *

(٢) اللسان ـ جدد ، وفى رواية : الجد ، بكسر الجيم ، أى الاجتهاد والعمل .

أبو هريرة رضى الله عنه ، قال صلى الله عليه وسلم : «خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح » .

سهل بن سعد رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عمل الأبرار من الرجال الخياطة ، ومن النساء الغزل »

* * *

فَقَيَّضَ القَدَرُ لِنَصَبِي وَوَصَبِي ، أَنْ حَضرَ هَذَا الْخُدَعَةُ نَادِيَ أَبِي ، فَأَقْسَمَ بَيْنَ رَهْطِهِ ، أَنَّهُ وَفْقُ شَرْطِه ، وَادَّعَى أَنَّهُ طالَمَا نَظَمَ دُرَّةَ إلى دُرَّةٍ ، فَباعَهُما بِبَدْرَةٍ ؛ فاغتَرَّ أَبِي بِزُخْرُفِ مُحالِهِ ؛ وَزَوَّجَنيهِ قَبْلَ اخْتِبارِ حَالِهِ ، فَلَمَّا اسْتَخْرَجَنِي مِنْ كِناسِي ، وَرَحَّلَنِي عَنْ أَنَاسِي ، وَنَقَلَنِي إلى كِسْرِه ، وَحَصَّلَنِي تَحْتَ أَسْرِهِ ، وَجَدتُهُ قُعْدَةَ جُثَمَةً ، وَأَلْفَيْتُهُ ضُجَعَةً نُومَةً . وَكُنْتُ صَحِبْتُهُ بِرِياشٍ وَزِيٍّ ، وَأَثَاثٍ وَرِيٍّ ، فَمَا بَرِحَ يَبِيعُهُ فى سُوقِ الهَضْمِ ، وَيُتْلِفُ ثَمَنَهُ فى الخَضْمِ وَالقَضْمِ ، إلى أَنْ مَزَّقَ حالِي بِأَسْرِهِ ، وَأَنْفَقَ مَالِي فى عُسْرِهِ .

° ° °

قوله : «قيَّض » ، أى قدّر وساق . نَصَبِي : تعبى . وَوَصبى : مرضى ، ونصِب الرجل نَصَباً .أعيامن التعب ، ووصَبَ وَصَباً :أتعبه المرض، فهو نصِب ووصِب . الخُدَعة: الكثيرالخداع لغيره ، وبسكون الدال الذى يخدعه غيره كثيراً ؛ التحريك للفاعل والسكون للمفعول فيما يأتى على «فُعَلة» من الصفات . نادى : مجلس . رهطه : قومه، وهو اسم لجماعة من ثلاثة إلى عشرة ، ويجمع

أرهُط وأراهط . وفْق شرطه : أى موافق ما اشترط . نَظْمُ دُرّة ، يريد أنه جوهرىّ ينظم سلوك اللؤلؤ . بَدْرة : عشرة آلاف درهم ، وأراد بالدّرّة هنا الكلمة ، ويعبّر بها عن الحكمة ،قال النبىّ صلى الله عليه وسلم « لاتَدَعُوا الدُّرّة فى أفواه الكلاب » ، يعنى العلم . اغترّ: انخدع ، وهو افتعل من الغرور.زخرف محاله : تزيين باطله ، وأصل زخرف ؛ زيّن الشىء بالزخرف وهو الذهب . كِناسى :بيتى وأصله للظّبى ، وهو من قوله تعالى:﴿ الجَوَارِ الكُنَّسِ ﴾[1] تشبيهاً لها بالظباء على ماذكره ابن قتيبة ؛ ويقال له : كُناس ومِكنس من الكنس ، كأنّ الظبية قد كنست مرقدها ووطّأته . رحّلنى : نقلنى وحَملنى على الرّحْل . كِسْره : بيته ، وأصله جانب بيت الشّعر أو الخِباء ، لأنّ جانب الخِباء قد انكسر عن يمينه . أسْره:حبسه . قُعَدة : كثير القعود. جُثَمة : كثير الجُثوم ، وهو ملازمة الموضع . ضُجَعة : كثير الاضطجاع ، وهو الامتداد على الأرض للنوم . نُوَمة : كثير النوم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ثلاثة لهم المقت من الله»، وذكر الذى يكثر النوم بالنّهار ، ولم يأخذ من الليل شيئاً، وفى حديث آخر : « خير أهل شر الزمان مُؤمن نُوَمة » . أبو عبيدة : هو الخامل الذّكر الذى لا يعرف الشرّ وأهله ، فتريد أنه عاجز قد لازَم بيتها ، فإن تصرّفتْ فيه اعتَرضها ممتدّاً،فلا تجد معه راحة. رياش:ثياب ، « فِعال»من الرّيش،لأنها تكسو البدنَ كما يكسو الرِّيش الطائر . زِىّ : هيئة حسنة من اللباس . أثاث : متاع . رِىّ : حالة حسنة،وأصله الهمز ، فسُهِّل وأُدْغم ليوافق « زيًّا» .قال ابنُ الأنبارىّ: الأثاث : المتاع.والرّؤى والرُّؤاء : المنظر، وما له رؤاء أى ماله منظر ولالسان. والحرْفان ، من رأيتُ أرى . ما برح : ما زال . الهَضْم : النّقصان . الخَضْم : الأكل بالفم كله . والقَضْم : الأكل بأطراف الأسنان . مَزّق : قطع وأفسد . حالى: غناى،ويروى«مالى» مكان«حالى» ، ومافيه بمعنى الّذى كأنه قال : فرّق

(١) سورة التكوير ١٦

الذى لى ، ورواية ابن ظفر «بالى» بالباء ، وقال: البال : الخاطر ، وما لهذا الشىء بالٌ ، إذا حَقَّرته ، والبال كالخلَد ، تقول خَطَرَ ببالى ، كما تقول : خطَر بخلَدى ونفسى ، وكأنّ هذا هو الأصل. والبال : الحال أيضاً ، ومنه قوله :

* وخالَف بالَ أهلِ الدّار بالِى *

عسره ، أى فقره .

* * *

فلمَّا أَنْسانِى طَعْمَ الرَّاحَةِ ، وَغادَرَ يَيْتِى أَنقَى مِنَ الرَّاحَةِ ، قُلْتُ له : يا هَذَا ، إنَّهُ لاَ مَخْبأَ بَعْدَ بُوسٍ ، وَلاَ عِطْرَ بَعْدَ عَرُوسٍ ، فانهَضْ لِلاكْتِسَابِ بِصِناعَتِكَ ، وَأَجْنِنِى ثَمَرَةَ بَرَاعَتِكَ ؛ فَزَعَمَ أَنَّ صِناعَتَهُ قدْ رُمِيَتْ بِالْكَسَادِ ، لِمَا ظَهَرَ فى الأَرْضِ مِنَ الفَسَادِ ، وَلِى مِنهُ سُلالةٌ ، كَأَنَّهُ خِلالَة ، وَكِلاَنَا مَايَنالُ مَعَهُ شِبْعَةٌ ، وَلاَ تَرْقَأُ لهُ مِنَ الطَّوَى دَمْعَةٌ ، وَقدْ قُدْتُهُ إِلَيْكَ ، وَأَحْضَرْتُهُ لَدَيْكَ ، لِتَعْجُمَ عُودَ دَعْوَاهُ ، وَتَحْكُمَ بَيْننَا بِمَا أَرَاكَ اللهُ .

فأَقبَلَ القَاضى عَلَيْهِ ، وَقَالَ له : قَدْ وَعَيْتُ قَصَصَ عِرْسِكَ ، فَبَرْهِنِ الآنَ عَنْ نفسِكَ ، وَإِلاَّ كَشَفْتُ عَنْ لَبْسِكَ ، وَأَمَرْتُ بِحَبْسِكَ ؛ فأَطْرَقَ إِطْرَاقَ الأُفْعُوَانِ ، ثُمَّ شَمَّرَ لِلْحَرْبِ الْعَوَانِ ، وقال :

* * *

الراحة : القرار والعيش الهنيء ، وأراد بأنقى من الراحة خلوّ الكف من الشعر . مخبأ : ستر . بؤس : شدّة وفقر . عِطْر : طِيب .

[أصل المثل : لا عطر بعد عروس]

ولا عِطْرَ بعد عَرُوس ، مثل يضرب لتأخير الشيء عن وقت الحاجة إليه ، وأصلُه أن رجلاً تزوّجَ امرأة فوجدها تَفِلَةً[1] ، فقال لها : أين عِطْرُكِ ؟ قالت : خبأته لغير هذا الوقت ، فقال لها : لا مخبأ لعطر بعد عروس ؛ وبهذا اللفظ روى أبو زيد الأنصاريّ المثل[2] .

البكريّ : عَرُوس رجل كانت عنده ابنة عمّ له ، فمات عنها ، فتزوّجها بعده ابن عمٍّ لها آخَر ، وهي كارهة ، وانطلق بها إلى أهلِه وقد زوّدها طِيباً في سَفَط ، فمرّ بها بقبر عروس ، فأقبلت تبكيه وترفع صوتها ، وتقول : يا عَرُوسَ الأعراس ، ويا شديد الباس ؛ مع أشياء لا يعلمها النّاس . فانتهرها زوجُها ، وقال : ما تلك الأشياء ؟ فقالت : كان عن المكارم غير نَعّاس ، يُعمِل السيف صبيحة الباس . ثم قالت : يا عروس الأعراس الأزهر ، الكريم المحضر ، مع أشياء كانت تذكر ؛ فازداد زوجُها غضباً ، وقال : ما تلك الأشياء ؟ فقالت : كان عيوفاً للخنا والمنكر ، طيب النكهة غير أبخر ، ثم أخذت السَّفَط وكسرته على قبر عَروس ، ثم قالت : لا عطر بعد عروس ، فذهب مثلاً . فقال زوجها : ارجعي إلى أهلِك ، أنت طالق ، فقالت : إذًا أنصرف مغتبطة[3] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن عروساً هذا رجل من هُذيل ، وامرأته هُذليّة اسمها أسماء .

قوله : «براعتك» ، أي جودة تدبيرك . سلالة : ولد صغير كما سُلّ من بطن

---

(١) تفل الشيء : تغيرت رائحته ، وامرأة تفلة ومتفال .

(٢) اللسان ـ عرس ، جمهرة الأمثال ٢ : ٣٩٥ ، الفاخر ٢١١ .

(٣) فصل المقال ٣٣٨

أمه ؛ ولهذا سُمِّى ولد الناقة عند النِّتَاج قبل أن يعلم أذكر هو أم أنثى : سليل ، ثم اتسعوا فى السُّلالة فقالوا : فلان كريم السّلالة . والخِلالة : عُود تُنقّى به الأضراس من الطعام ، شبَّهت ولدها به فى رِقّته . ترقأ : تنقطع . الطَّوى : الجوع ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء إثما أن يضيّع من يقوت » . تعجُم : تختبر . دَعْواه : ما ادّعاه من الصّنعة ، وعجمت العود : عضضته بأسنانك لتعلم قوّته من ضعفه . وعيت : حَفِظت . قِصَص عرسك : حديث زوجك . بَرهِنْ : أظْهِر حُجَّتك ، والبُرهان : الحجّة . لَبْسك . تخليطك والتباس أمرك . أطرق : أمال رأسَه إلى الأرض ساكتاً . الأُفْعُوان : ذَكَر الأفاعى ، وهذا منقول من قول المتلمّس :

فأطْرَقَ إطرَاق الشّجاع ولو رأى مساغًا لنابيْه الشّجاعُ لصَمَّما[1]

ووقع لنا فى رواية « لناباه »[2] ، وهى لغة . شمّر : احتزم . العوَان : التى قُوتل فيها مرة بعد أخرى ، وهى أشدّ ، والمرأة العَوان : التى علت فى السنّ ولم تهرم . والعَوان : الثيّب ، كانت ذات زوج أو لم تكن ، وعوّنت المرأة تعويناً ، والجمع عُون .

* * *

اسْمَعْ حَدِيثِى فإنَّهُ عَجَبُ يُضْحَكُ مِنْ شَرْحِهِ وَيُنْتَحَبُ
أَنا امْرُؤٌ لَيْسَ فى خَصَائصِهِ عَيْبٌ وَلا فى فَخَارِهِ رِيَبُ
سَرُوجُ دَارِى الَّتى وُلِدْتُ بِهَا وَالأَصْلُ غَسَّانُ حِينَ أَنتَسِبُ
وَشُغْلِىَ الدَّرْسُ ، وَالتَّبحُّرُ فى الـــعِلْمِ طِلاَبِى ، وَحَبَّذَا الطَّلَبُ
وَرَأْسُ مَالِى سِحْرُ الْكَلاَمِ الَّذِى مِنهُ يُصَاغُ القَرِيضُ وَالْخُطَبُ

(١) من الأصمعية ٩٢ ص ٢٥٦ ، الشجاع : الحية الذكر ، ومساغ ، مفعل من ساغ يسوغ ، وأصل معناه سهولة مدخل الشراب فى الحلق .
(٢) يجعلونه شاهدا على إلزام المثنى الألف فى إعرابه .

أَغُوصُ فى لُجَّةِ الْبَيَانِ فأخْـتارُ اللآلِى مِنْهَا وَأَنْتَخِبُ
وَأَجْتَنِى الْيَانِعَ الْجَنِىَّ من الـقَوْلِ ، وَغَيْرِى لِلْعُودِ يَحْتَطِبُ
وَآخُذُ اللَّفْظَ فِضَّةً فإذَا مَاصُغْتُهُ قِيلَ إنهُ ذهَبُ
وَكُنْتُ مِنْ قَبْلُ أَمْتَرِى نَشَبًا بالأدَبِ المنْتَقَى وأَحْتَلِبُ
وَيَمْتَطِى أَخْمَصِى لِجُرْمَتِهِ مَرَاتِبًا لَيْسَ فوقَهَا رُتَبُ
وَطَالَمَا زُفَّتِ الصِّلاتُ إلى رَبْعِى فَلَمْ أَرْضَ كلَّ مَنْ يَهَبُ

* * *

قوله : « يُنتحب» ، أى يُبكى ، ونحب نحيباً : أعلن بالبكاء . خصائصه : فضائله ومايختصّ به من الأفعال المحمودة . ريْب : شكوك . التبحّر : التوسّع . طِلابى : أى طلبى ، وإنما هو للعلم ، وذكر التبحّر واللآلى والغوص وغير ذلك مجازاً ؛ وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما انتعل رجل قطّ ولا تخفّف ولا لبس ثوباً ليغدُوَ فى طلب علم يتعلمه إلاّ غفر الله له حيث يخطو عتبة بيته » . رُوى عن عائشة رضى الله عنها أنّها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من انتعل ليتعلم خيراً غفر الله له قبل أن يخطو » .

ابن عباس رضى الله عنهما ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : «الغُدُوّ والرّواح فى تعليم العلم خيرٌ عند الله من الجهاد فى سبيله » .

ابن مسعود رضى الله عنه ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ خرج بطلب بابا من العلم ليردَّ به ضلالا إلى هدى ، أو باطلا إلى حق ، كان كعبادة متعبد أربعين سنة » .

قوله : «يصاغ» ، أى يصنع . الغريض : الشعر . أغوص : أغيب فى الماء إلى قعره . واللّجة : معظم الماء ، جعله للبيان مجازاً . اللآلى : جمع لؤلؤة أنتخب :

أختار . وقال المسيب بن علَس[1] فى وصف الغائص وانتخابه الدرة وتشبيه المرأة بها :

كَجُمَانة البحرىّ جاء بِهـــا غَوّاصُها من لُجّةِ البحرِ[2]
نصف النهار المـــاء غامرُه وشريكه بالغيب ما يدرِى
فأصاب مُنْيَتَه فجـاء بهـــا صدفيّـــةً كمضيئة الجَمْرِ
يُعْطَى بهـــا ثمنا فيمنعُها ويقول صاحبه : ألا تشرِى ![3]
وترى الصّرارىّ يسجدون لها ويضمُّهـــا بيديه للنحـــر

وقال عبد الرحمن بن حسان :

وهى بيضاء مثل جوهرة الغـــوّاصِ مُيِّزتْ من جوهرٍ مكنون.

وقال النابغة :

أو درّةٍ صدفيّةٍ غواصُها بهِـجٌ متى يرها يُهِلّ ويسجد.

قوله : « اليانع » أى الناعم . الجنِىّ : الطرىّ . أمترِى نشباً ، أى أستخرج مالاً ، ومريتُ ضرع الناقة : مسحته وحككته ليدِرّ اللبن. والنَّشب ، قيل : هو العقار ومالا ينقل ، وكأنّ مالكه قد نشب إليه حيث لا ينتقل به ، كالذى مالُه الماشية أو الذهب والفضة . المنتقَى : المختار ، ويروى « المقتنى » ، وهو المكتسب . ويقال : احتلب وحلَب حلَباً ، والحليب : اللبن ، وهو الحِلاب ، والحِلاب أيضا : الإناء يحلب فيه ، وأصله السَّيلان. وتحلَّب الضَّرْع : سال ، وانحلبتْ عينه : سال دمعها . يمتطِى : يركب . أخمصى : باطن قدمى ، وهو ماضمُر منها وارتفَع عن الأرض . لُحْمته : أى لرفعته وشرفه . مراتباً : منازلا : والمرتبة منزلة الشرف ، من الرتَب وهو

(١) ط : « على » تحريف .
(٢) الأبيات فى شعراء النصرانية ٣٥٦ ، وخزانة الأدب ١ : ٥٤٥ .
(٣) ألا تشرى ، أى ألا تبيع ، كذا ذكره ابن الأنبارى فى الأضداد ٧٤

حما أشرف من الأرض . والرُّتَب : جمع رُتبة ، وهى بمعنى المرتبة ، وأصل الرُّتَب الدَّرَج تُقطع فى الحجر ليُصعد بها إلى أعلى الجبل ، ومنه رتب كلامَه ، إذا أتبع بعضُه بعضا على نظام واعتدال . زُفَّت : حُمِلت ، من زَفَفْت العروس إلى زوجها إذا أهديتَها له . الصِّلات : العطايا . رَبْعى : منزلى . لم أرض كلّ مَنْ يَهَبُ ، أى لا أرضى أن أكون تحت مِنّة كل أحد .

* * *

فَالْيَوْمَ مَنْ يَعْلَقُ الرَّجَاءَ بِهِ أَكْسَدُ شَىءٍ فِى سوقِهِ الأَدَبُ
لاعِرْضُ أَبْنَائِهِ يُصَانُ وَلا يُرْقَبُ فيهمْ إِلٌّ وَلا نَسَبُ
كَأَنَّهُمْ فى عِراصِهِمْ جِيَفٌ يُبْعَدُ مِنْ نَتْنِهَا وَيُجْتَنَبُ
فَحَارَ لُبِّى لِمَا مُنِيتُ بِهِ مِنَ اللَّيَالى وَصَرْفُها عَجَبُ
وَضاقَ ذَرْعى لضيقِ ذاتِ يدِى وَسَاوَرَتنِى الهُمُومُ وَالكُرَبُ
وَقادَنى دَهْرِى المَلِيمُ إلى سلُوكِ مَا يَسْتَشِينُهُ الحَسَبُ
فَبِعْتُ حَتى لم يَبْقَ لى سَبَدٌ وَلَا بَتَاتٌ إِلَيْهِ أَنْقَلِبُ
وادَّنْتُ حَتى أَثْقَلْتُ سَالِفَتى بِحَمْلِ دَيْنٍ مِنْ دونِهِ العَطَبُ
ثُمَّ طَوَيْتُ الحَشَى عَلَى سَغَبٍ خَمسًا فلمَّا أَمَضَّنى السَّغَبُ
لَمْ أَرَ إلاَّ جِهَازَهَا عَرَضًا أَجُولُ فى بَيْعِهِ وَأَضْطَرِبُ

* * *

مَنْ يعْلق : معنى من استفهام[1] . يرقُبْ : يرعى . إلّ : قرابة ، وإلّ : بقاء

(١) حاشية ط : قوله : من استفهام ، الظاهر أن من موصولة وعبارة غيره ؛ أى أن من يتعلق به الأمل ، ويرجى منه النوال لا يستعمل الأدب والمعارف ، حتى صار ذلك كالسلعة الكاسدة عنده . انتهى بالحرف . مصححه .

عهد . وسبب: معرفةوصحبه، والسبب : العلم، ومنه : ﴿وآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾[1] ؛ وأصله الحبْل ؛ ثم يُستعمل فى كل ما يَرْبط شيئاً بشىء ، من كلام أو غيره . عِرَاصهم: مواضعهم ، وأصل العَرْصة ، فناء الدار. يقال: لَبّ الرَّجل يلُبّ لَبَابَةً ، ورجل ملبُوب : موصوف باللّبابة ، ولُبّ كل شىء من الثمار ولبابه : داخله ، ولبّ كل شىء : خالصه . مُنِيت: ابتليت وقُدِّرلى . صَرْفُها : تقلّبها وتصرّفها بما يكره . ذَرْعى : كناية عن صدرى وخُلقى ،وأصل الذَّرع كيل الشىء بالذّراع ؛ ثم صار مثلا ، يقال : ضاق ذَرْعى بكذا إذا لم تحتمله وضاق تصرُّفك فيه . ذات يدى ، أى مالى. ساورتنى : وائبتنى . الكرْب : الهموم ، وكرّرها لاختلاف اللفظ . المُلِيم : الذى أتى بما يُلام عليه . سُلُوك : دخول .يستشِينه : يستعيبُه ، والشّيْن : العيب . لَبد : شىء لا قليل ولا كثير ، وأصله الصّوف ، وأكثر ما يستعمل مُزْدَوجاً مع سَبَد ؛ يقال : ما عنده سَبَد ولا لَبَد، أى لاشعر ولا صوف ، ويراد بها نفى الإبل والغنم ، ثم صار نفيا لكلّ شىء من المال . بَتَات : زاد . أنقلب : أرجع .

ادّنت : أخذت بالدّيْن، وفى حديث عمر: «فادّان مُعْرِضًا»[2] .والسالفة : صفحة العنق ، يريد أن هذا الدّيْن لثقله ومقاساة همومه فوق العَطَب ، والعطب : الذى هو الهلاك دونه فى الشدّة. عائشة رضى الله عنها : قال النبى صلى الله عليه وسلم :«إذا أراد الله أن يذلّ عبده ابتلاه بالدّيْن وجعله فى عنقه » ، وقال أنس رضى الله عنه : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إياكم والدّين فإنه همٌّ بالليل ومَذَلّةٌ بالنهار » ، وروى جابر رضى الله عنه ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لاهمّ إلا همّ الدّيْن ولا وجع إلا وجع العين » .

الحشى : أسقاط الجَوْف . سَغَب : جوع . أمضّنى : أحرقنى . جهازها :

(١) سورة الكهف ٨٤ .

(٢) فى حديثه عن أسيفع جهينة ، أى استدان معرضا . النهايةلابن الأثير ٢ : ١٤٩

متاعها الذى جاءتنى به ، والجِهاز ، متاع البيت ، يريد شِوَارها . عَرَضاً ، أراد « عَرْضا » فحركه ضرورة ، والعرْض الأمتعة هنا ، أخبرنى بهذا مَنْ يوثق به فى اللغة : والعَرَض خلاف النقد مشهور فى اللغة . وفى العين : العَرَض ، بفتح الراء : كثرة المال ، فيقول : لمّا لم يبقَ لى مالٌ لم أر مالاً إلا جهازها ، فيكون على هذا أتمّ معنى ، ويخرج عن الضرورة التى ألزمته ذلك التحريك . أحول : أتصرّف . أضطرب : أكثر الترداد والتصرّف .

* * *

فَجُلْتُ فيهِ وَالنَّفْسُ كَارِهَهْ ... وَالعَيْنُ عَبْرَى وَالقَلْبُ مكتَئِبُ
وَمَا تجاوَزْتُ إذْ عبَثْتُ بِهِ ... حَدَّ التَّرَاضِى فَيَحْدُثُ الغَضَبُ
فإنْ يَكُنْ غَاظَهَا تَوَهُّمُهَا ... أنَّ بَنَانِى بالنَّظْمِ تَكْتَسِبُ
أوْ أنَّنِى إذْ عَزَمْتُ خِطْبَتَهَا ... زَخْرَفْتُ قَوْلِى لِيَنْجَحَ الأَرَبُ
فو الَّذِى سَارَتِ الرِّفَاقُ إلَى ... كَعْبَتِهِ تَسْتَحِثُّهَا النُّجُبُ
ما المكرُ بالمُحصَنَاتِ مِن شِيَمِى ... وَلاَ شِعَارِى التَّمْوِيهُ وَالكَذِبُ
وَلا يدِى مُذْ نَشَأْتُ نِيطَ بِهَا ... إلاَّ مواضِى اليَرَاعِ وَالكُتُبُ
بَلْ فِكْرَتِى تَنْظِمُ القَلاَئِدَ لا ... كَفِّى ، وَشِعْرِى المَنْظُومُ لا السُّخُبُ
فهذِى الحِرْفَةُ المُشَارُ إلى ... مَا كُنْتُ أَحْوِى بِهَا وأجْتَلِبُ
فأذَنْ لشَرْحِى كما أَذِنْتَ لها ... ولا تُراقِبْ واحْكُمْ بِمَا يَجِبُ

* * *

عَبْرَى : باكية . مكتئب : حزين . عَبَثْتُ : لعبت وتحكّمت فيه ؛ يقول : ماتصرّفت فى بيعه الا برضا منها ومنى[1] . قوله : « توهّمها » ، أى ظنها . خطبتها :

(١) حاشية ط : « قوله : ومنى ، لاحاجة إليه » .

مراسلتها فى النكاح . لينجج الأرب : لتقضى الحاجة . تستحثّها : تستعجلها . النُّجُب : الإبل الكرام . المكر : الخداع ، المحصنات : العفائف . شِيَمى : طبائعى . شِعارى : علامتى : التمويه ، تقدّم فى الثامنة . نيطَ : علِق ، وناط الشىء نوطًا : علّقه . اليَراع : الأقلام . والمواضِى : المسرعة فى الكتابة ؛ يريد أنه فصيح لا يتوقّف قلمه . السُّخُب : جمع سخاب ، وهى قلادة قرنفل ليس فيها جوهر ولا لؤلؤ . قال ابن ظفر : السّخُب : العقود من اللؤ ؤ وغيره ، ومن الطّيب أيضا . أحْوَى : أحْوَز وأجمع .

فأذنْ : اسمع . لا تراقِبْ : لاتراع منّا أحدا ولا تؤثره على صاحبه واحكم بيننا بما يجب ؛ وأخذ معنى الأبيات المتقدمة من قول ابن هَرْمة :

إنى امرؤ لاأصوغ الْحَلْىَ تعملُه كفّاى لكن لسانى صائغُ الكلِمِ

وقال آخر :

وإنى لنظّام القلائد للمُلَا ولستُ بنظّام القلائد للنَّحْرِ

* * *

قال : فلمّا أحْكَمَ مَاشادَهُ ، وأكملَ إنْشادَهُ ، عَطَفَ القاضى إلى الفَتاة ، بَعدَ أنْ شُغِفَ بالأبياتِ ، وَقالَ : أمَا إنَّهُ قَدْ ثبتَ عِنْدَ جَمِيعِ الْحُكّامِ ، وَوُلاَةِ الأَحْكامِ ، انْقِرَاضُ جِيلِ الكِرَامِ ، وَمَيْلُ الأَيّامِ إلى اللِّئامِ ، وإنّى لإخَالُ بَعْلَكِ صَدُوقًا فى الْكَلامِ ، بَرِيًّا منَ الملامِ ، وَهَاهُوَ قَدِ اعْتَرَفَ لَكِ بالْقَرْضِ ، وَصَرَّحَ عن المحْضِ ، وَبَيَّنَ مِصْداقَ النَّظْمِ ، وَتَبَيَّنَ أنَّهُ معروقُ الْعَظْمِ ؛ وإعْنَاتُ الْمُعْذِرِ مَلْأَمَةٌ ، وَحَبْسُ الْمُعْسِرِ مَالَمَةٌ ، وَكِتْمَانُ الفَقْرِ زَهَادَةٌ ، وَانْتِظارُ الْفَرَجِ بالصَّبْرِ

عِبَادَة ، فارْجِعِى إلى خِدرِكِ ، واعْذُرِى أَبا عُذْرِكِ ، وَنَهْنِهِى مِنْ غَرْبِكِ ، وَسَلِّمِى لِقَضَاءِ رَبِّكِ . ثُمَّ إنَّهُ فَرَضَ لَهُمَا فى الصَّدَقَاتِ حِصَّةً ، وَناوَلَهُمَا مِنْ دَراهِمِهِمَا قَبْضَةً ، وقال لَهُما : تَمَلَّلاَ بِهَذه المُلاَلَةِ ، وَتَنَدَّيا بِهذه البُلاَلَةِ ، واصْبِرَا عَلَى كَيْدِ الزَّمانِ وَكَدِّه ، فعَسَى اللهُ أنْ يأتىَ بالْفَتْحِ أوْ أمْرٍ مِنْ عنده . فنهَضا وَلِلشَّيْخِ فَرْحَةُ المطْلَقِ منَ الإسارِ ، وَهِزَّةُ المُوسِرِ بعد الإعسار .

* * *

قوله : « أحكم » ، أى أتقن . شاده : بناه وزيّنه ، وشاد البناء : أطاله وعَمِله بالشِّيد ، وهو الجِصّ ، ويقال فيه : أشاد ، ويقال : شاد عمله بالشِّيد وأشاده : أطاله ، هو الأول ، وأشاد الحديث : رفعه ، وعطف : ثنى عُنُقَه وردّها ، وكل ما تثنيه من عنق أو جارحة أو عُود فقد عطفتَه . شُعِفَ : أعجب . انقراض : انقطاع وهلاك . جيل : صِنْف ، وجيلُك : أهل عصرك بَعْلك : زوجك ؛ وبَعَل الرجل بُعولة : تزوّج . والقرْض : السَّلف ، أراد به ما أعطته من ثمن جهازها سلفاً . صرّح : بيّن . وصرّح عن المحْض ، مثل يضرب لسرّ الأمر ، إذا انكشف ، وقالوا : أمرٌ صُراح ، أى منكشف ظاهر ، والصريح من اللبن : المحض الخالص الذى لا رَغْوة فيه ، قال الشاعر :

* وتحت الرَّغوة اللَّبن الصَّريحُ[1] *

ثم قالوا : لكل شىء خالص : صريح . وقوله : « بيّن مصداق النظم » ، يريد أن نظمه إنما هو للشعر لا للجوهر . ومعروق : لا لحم على عظمه ، أى هو فقير

(١) أصل المثل : « تحت الرغوة الصريح » ، وأول من قاله عامر بن الظرب . وانظر جمهرة الأمثال ١ : ٢٧٠ .

إعنات : مشقة . المعذِر : الذى يجهد نفسه فى الشّىء ثم لا يستطيعه ، يقال : قد أعذر ، أى قد بَيَّن عذرُه أنّه لا يقدر عليه ، وعذَّر فهو معذِّر ، إذا قصّر فى طلب الشىء ، قال تعالى : ﴿وَجَاء المعذِّرُون مِنَ الأعْرابِ لِيُؤْذَن لهم﴾[1] ، وقال ابن دريد :

* حكم المعذِّر غير حكم المعذِر *

الملائمة والمأثمة : اللؤم والإثم . والمعسر : الفقير : والزهادة : قلّة الرغبة ، قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ جاع واحتاج فكتمه الناس وأنزله بالله ، كان حقًّا على الله أن يفتح عليه رزق سنة من حلال » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « انتظار الفرج بالصبر عبادة » .

وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما صبر أهل بيت على جهد ثلاثاً إلا أتاهم الله عزّ وجل برزق » .

خدرك : بيتك ، وأصله السِّتر يكون خَلْفه الجارية المحجوبة . أبا عُذْرك : زوجك المفتضّ لك . نهنهى : كُفِّى . غربك : حدّة لسانك . وقيل : معنى « نهنهى من غَرْبك » ، أى غيِّضى من دموعك ، والغَرْب : فيْض الدمع ، والأوّل أشبه . سلِّمى : انقادى . فَرَض ، أى أوجب . حِصّة : نصيب . ناولها : أعطاها . قبْصة : ما أخذت بأطراف أصابعك . العُلالة : الشىء القليل . تعلّلا : خُذا منه شيئاً بعد شىء ، وكذلك تندّيا ، وأصل العُلالة بقية الماء فى الإناء ، وبقيّة اللبن فى الضَّرْع بعد الحلب ، قال الراجز :

* يرضعها الدِّرة والعُلاله *[2]

(١) سورة التوبة ٩٠

(٢) اللسان ـ علل ، وروايته : « ترضعى » ، وقبله :

* أَحْمِلُ أُمّى وهِىَ الحَمّالَهْ *

والبُلالة : الندى القليل يبلُّ وجهَ الأرض . كيد : مكر . كدّه : جهده
وأنشد أبو مِحْجَن الثقفيّ :

عسى فرجٌ يأتى به الله إنّه له كلّ يومٍ فى خليقته أمرُ
عسى ماترى ألاّ يدومَ وأن ترَى له فرجاً مما ألحّ به الدهْرُ
إذا اشتدّ عسرٌ فارجُ يُسْرا فإنه قَضى اللهأنّ العسر يتبعُه اليُسْرُ

الإسار : الحبل يشدّ به الأسير . هِزّة : طرب. الموسر : الغنىّ . الإعسار: الفقر ، وسئل حكيم : أىّ الأشياء أحلَى ؟ قال: النُّصرة على العدوّ بعد الهزيمة ، والاستغناء بعد الحاجة ، والغلَبة للمتكلم .

* * *

قال الرَّاوى : وكُنْتُ عَرَفْتُ أَنَّهُ أبو زيدٍ ساعَةَ بَزَغَتْ شَمْسُهُ ، وَنَزَغَتْ عِرْسُهُ ، وَكِدْتُ أُفْصِحُ عَن افتنانهِ ؛ وإثْمارِ أَفْنانهِ ؛ ثُمَّ أشْفَقْتُ منْ غُتورِ الْقَاضِي عَلَى بُهتَانِهِ ، وَتَزْوِيقِ لِسَانهِ ، فلاَ يَرَى عِنْدَ عِرْفانهِ ، أنْ يُرَشِّحَهُ لإحْسانهِ ، فأَحْجَمْتُ عَنِ القَوْلِ إحْجامَ المُرْتابِ ،وَطَوَيْتُ ذِكْرَهُ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكِتابِ ؛ إلاَّ أنِّى قُلْتُ بَعْدَ مَافَصَلَ ، وَوَصَلَ إلى مَاوصَلَ : لَوْ أنَّ لَنَا مَنْ يَنطَلِقُ فى أثَرِهِ ، لأَتَانَا بفَصِّ خَبَرِهِ ، وَبمَا يُنْشَرُ مِنْ حِبَرِهِ ! فأَتْبَعَهُ الْقاضِي أحَدَ أُمَنَائهِ ، وَأَمَرَهُ بالتَّجَسُّسِ عن أنْبَائِهِ ، فما لَبِثَ أن رَجَعَ مُتَدَهْدِهًا ، وَبَهْرَ مُقَهْقِهًا ، فقال لهالقاضى : مَهْيَمْ ، يا أبا مَزْيم ، فقال : لَقَدْ عَايَنْتُ عَجَبًا ، وَسَمِعتُ ما أنْشَأَ لى طَرَبًا ،

فقال له :ماذَا رَأَيْتُ ، والَّذى وَعَيْتُ !

* * *

قوله : «بزغت» ، أى طلعت . ونزغت : نشزت وقابلته بالشرّ والذِّكْر القبيح ، وأراد أنّه عرَفه حين ساقته زوجته إلى القاضى. أفْصِح : أبِين . افتنانه : تنوّعه . إثمار : إخراج الثمر ، وهو حمل كلّ شجرة . أفنانه: أغصانه . أشفقت: خافت . عثور : ظهور ، وعثر على الأمر : اطّلع عليه . بهتانه : باطله وكذبه . تزويق : تزيين ، وهو من الزَّاوُوق الذى يعرفه العامة بالزّواق ، أى أنه تزيين فى الظاهر ، وليس له ثبات . عِرْفانه : تقدّم معرفته . يرشّحه :يهيئه، وفلان يرشّح لكذا ، أى يؤهّل له ، من رشّحت الأم ولدَها باللبن ، إذا جعلته فى فيه شيئاً بعد شىء حتى يقوَى ، وقيل : الترشيح: التربية ، وقيل: هو تحنّن الأمّ على ولدها من الشدّة . أحجمت: تأخّرت . المرتاب : صاحب الريبة. طويت: سترت . السِّجلّ: الورق. والكِتاب:المكتوب فيها،وقوله تعالى : ﴿ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَابِ ﴾[1] ، قيل :السِّجلّ:اسم كاتب للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقيل: ملَك من السماء الثالثة رَفَع إليه الحَفَظة أعمال العباد كلّ خميس واثنين . فصَل : زال وانفصل بفصّ خبره : بحقيقة أمره . ينشر : يظهر . حبّره : حسّن كلامه ، وأصله ثياب يمانية مزيّنة ، ونشرها : حلّها من طيّها . التجسُّس : البحث . أنبائه : أخباره ما لبث ، أى ما أقام ، والمعنى ما أبطأ شيئاً حتى رجع. متدهدهاً : متحرِّكاً ،والتدهده : قَذْف الحجر من أعلى إلى أسفل . قهقر : رجع إلى خلف . مقهقهاً : مبالغاً فى الضحك ، والقهقهة : حكاية صوت الضاحك . مهيم : كلمة استفهام ، معناها : ما الأمر ؟ عاينت : رأيت . أنشأ : أحدث ، وتقديره : سمعت شيئاً أحدث لى ذلك الشىء

(١) سورة الأنبياء ١٠٤ .

المسموع الطَّرَب ، ولا يكون «أنشأ »فعلاً لأبى زيد ، إنما هو فعل ا« ما »من قوله : «ما أنشأ» . وعيت : حفظت .

* * *

قالَ : ولم يَزَلِ الشيخُ مُذْ خَرَجَ يُصفِّقُ بيَدَيهِ ، ويُخالِفُ بَينَ رِجْلَيْه ، وَيُغَرِّدُ بملءِ شِدْقَيْهِ ، ويَقول :

كِدْتُ أُصْلَى بِبَلِيَّهْ مِنْ وقَاحِ شَمَرِيَّهْ
وَأزُور السِّجْنِ لَوْلا حَاكِمُ الإسكندريَّهْ

فَضحك القاضي حَتَّى هَوَتْ دَنِينتُهُ ، وَذَوَتْ سَكِينتُه ، فَلَمَّا فاء إلى الْوَقارِ ، وَعَقَّبَ الاستغْرَابَ بالاستِغْفارِ ، قال : اللَّهُمَّ بِحُرمَةِ عِبَادِكَ المُقَرَّبِينَ ، حَرِّمْ حَبْسِي عَلَى المتأَدِّبِينَ . ثم قال لذلك الأمين : عَلَيَّ بِهْ ، فانْطَلِقْ مُجِدًّا فى طَلَبِهْ . ثُمَّ عادَ بَعْدَ لَايه ، مُخبِّرًا بنَأْيهِ ، فقال له القاضى : أَما إنَّهُ لَوْ حضَرَ ، لَكُفِيَ الحَذَرَ ، ثُمَّ لَأَوْلَيْتُهُ مَاهُوَ بِهِ أَوْلَى ، وَلَأَرَيْتُهُ أَنَّ الآخِرَةَ خيرٌ لهُ من الأُولَى .

قال الحارث بن همام : فَلَمَّا رَأَيْتُ صَفْوَ الْقاضى إليْهِ ، وَفَوْتَ ثمرَةِ التنبيه عَلَيْهِ ، غَشِيَتْنِي نَدامَةُ الفرزدقِ حِينَ أَبَانَ النَّوَارَ ، وَالكُسَعِيِّ لَمَّا استبان النَّهَار .

* * *

يصفّق بيديه : يضرب بكفيه . يخالف بين رجليه : يعبث بهما فى مشيه

فيضع كلّ رِجْلٍ موضع الأخرى ، وهى من أنواع الرقص ؛ أراد أنه يضرب بكفّيه ويرقص . يغرّد : يغنّى . بملء شدقيه ، أى بصوت شديد تمتلىء به أشداقه .

وملء القدح : قدر ما يملؤه . أبو يعقوب : يقال : أعطنى ملء القدح ماء ، وأعطنى مِلأَيْه ، وأعطنى ثلاثة أملائه .

أصْلَى ببليّة ، أى قربتُ أن أحترق بها وأتصلّى بها ، والبليّة : المصيبة يبتلى بها ، وَقَاح ، جمع وقاحة ، وهى صلابة الوجه ، وأصلها من الحافر الصُّلْب ، وقال بعضهم فى صلابة الوجه :

لا يعملُ المِبْرَد فى وَجهِهِ بل وجهه يعمل فى المِبْرَدِ

فجعل وجهه لصلابته يؤثّر فى الحديد . شَمَّرِيّة ، أى شديدة القِحَة ، قال الأصمعىّ : سألت أعرابيًّا ، وقد خرج من الصَّلاة : ما قرأ الإمام؟ قال : ما أدرى إلا أنه وقع بين موسى وفرعون شَمّريّة . هوت : سقطت . دِنِينَته : قلنسوته ، وهذه اللفظة إنما وقعت فى المقامات بفتح الدال وكسر النون ، ودنينته بنونين لتوافق «سكينته» ، والصحيح حذف نونها الثانية وكسر الأولى ، وهى قلنسوة محدّدة الطرف يلبسها القضاة والأكابر ، وليست من كلام العرب ، إنما هى من الألفاظ المستعملة فى العراق ، وقد استعملها شعراؤهم ، قال ابن لَنْكَك :

نفسى تقيك أبا الهندامِ يا أمَلِى إنّى بكلّ الذى ترضاه لى راضِى[1]
ما كان أيْرى فقيهًا إذ ظفرت به فكيف ألبسته دِينيّةَ القاضِى

وقال الصابى :

وفوقه دينيّةٌ تَذْهَبُ طَورًا وتَجِى

(١) يتيمة الدهر .

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٣٢٦ ، وهناك : « تقيك أبا الهيذام كل أذى » ، وأبو الهيذام شاعرا اسمه كلاب بن حزة ؛ كان ابن لنكك مولعا بهجائه .

ذَوت : زالت وخفيت. سكينته : وقاره ، وأصل ذَوَى ، فى الشىء الذى فيه بلَل وندوّة ، فيجفّ بلله ، فاستعاره للسكينة. فاء: رجع. وعقّب : أتبع. الاستغراب: كثرة الضحك ، حتى تدمع العينان ؛ أراد أنه أتبع ضحكه الاستغفار ليكون كفّارة له ، وهذا الذى حُكِىَ عن القاضى يُحْكَى مثاله عن الحجاج ، يقال : إنه كان إذا استغرب ضحكاً يوالى من الاستغفار .

وقال عبد الله بن مسعود : فى كتاب الله آيتان ما أصاب عبد ذنباً فقرأهما ثم استغفر الله إلا غفر له الأولى : قوله تعالى: ﴿ والَّذِين إِذَا فَعَلوا فَاحِشَةً . . . ﴾[1] الآية ، والثانية قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ... ﴾[2] الآية .

قال أبو سعيد الخدرىّ رضى الله عنه : من قال : « أستغفر الله الّذى لا إله إلاّ هو الحىّ القيوم وأتوب إليه » خمس مرّات ، غفر له ولو فرّ من الزحف .

شدّاد بن أوس رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: « سيّد الاستغفار أن تقول: اللهمّ أنت ربى لا إله إلا أنت وأنا عبدك أصبحت على عهدك[3] ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شرّ ما صنعتُ ، أبوء بنعمتك علىّ ، وأبوء لك بذنبى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

وأصل غفر واستغفر غَطّى . قال قطرب : اللهمّ اغفر لنا ذنوبنا ، أى غطّها ، من قول العرب : غفرت المتاع فى الوعاء أغفره غفرا ، أى غطّيته . ثعلب : غَفَر الرجل فى مرضه يغفر غفراً ، أى نكس ، فكأنّ المرض غطّى عليه . وقال الأصمعى رحمه الله : اللهم اغفر لنا ذنوبنا ، أى استرها علينا ، ومنه : اصبغ ثوبك ، فإنه أغفر للوسخ ، أى أستر ، وهذه معان متقاربة .

---

(١) آل عمران ١٣٥ (٢) النساء ١١٠ .

(٣) الجامع الصغير ١ : ٥٧ ، وفيه : « وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك » ، وفى آخر الحديث : « ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح كان من أهل الجنة » .

قوله: «عَلَيّ به»، أى جئنى به. مجدًّا : مجتهداً فى طلبه . لأْيه : إبطائه. نأْيه : بعده. الحذَر : الخوف . أوليته ، بمعنى وليته وأعطيته . أوْلَى : أحقّ ، يريد أنه لو رجع إليه كان يصله فى المرّة الثانية بما هو خير مما وصله به أوّل مرة . قوله : « صغو » ، أى ميل . فَوْت : ذهاب . التنبيه : الإعلام . غشيتنى : غطّتنى ولحقتنى . أبان : طلق . النّوار : بنت عم الفرزدق وزوجه . استبان : تبيّن .

وقال الشاعر :

لو أنّ صدور الأمر تبرز للفتَى كأعقابه لم تُلفــه يتندَّمُ

[ذكر الفرزدق وبعض أخباره]

والفرزدق اسمه همام بن غالب بن صعصعة ، دارمىّ من أشراف تميم . والفرزدق لقّب به لجهومة وجهه وغلظه ، والفرزدق : قطعة العجين ، وقيل : الرغيف الضخم .

وخبره مع النوّار بنت أعين المجاشعىّ ، أنه خطبها رجل من قريش أو من دارم ، فبعثتْ إلى الفرزدق أن يكون وليّها إذا كان ابن عمها ، فقال: إنّ بالشّأم مَنْ هو أقرب إليك منى ولاء ، وأنا حذر من أن يقدم منهم قادم ، فينكر ذلك علىّ ، فاشهدى أنك جعلت أمرك إلىّ . فجعلت له أمرها أن يزوّجها ممن يرى ، وأشهدت له بذلك ، فقال لها : أرسلى إلى القوم أزوّجك ممّن خطبك. فلما غصّ مسجدُ بنى مجاشع ببنى تميم جاء الفرزدق ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : قد علمتم أن النّوار ولّتنى أمرَها ، وأشهدكم أنّى قد زوّجتها من نفسى ، فنشزَت عليه ونافرته من البصرة إلى عبد الله بن الزبير بمكّة حين أعياها أمراء البصرة، أن يطلقوها منه . وأعياها الشهود أن يشهدوا لها اتقاء من شرّه ، فلم يقدر أحد على

حملها ، حتى تحمَّلَها قومٌ من بنى عدىّ ، يقال لهم بنو نُسير إلى مكة ، فصحبتْهم النّوار ، فقال الفرزدق :

وقدسخِطتْ منىٍّ النَّوارالذى ارتضى ... به قبلها الأزواجُ ، خاب رحِيلُهَا (١)
أطاعت بنى أمّ النُّسَيْرِ فأصبحتْ ... على شارفٍ ورقاء صعب ذَلُولُهَا (٢)
وإن امرأً يسعى ليفسد زوجتى (٢) ... كساعٍ إلى أُسْدِ الشَّرى يستبيلُهَا (٣)
ومن دون أبوال الأسود بسالةٌ ... وبسطة أيدٍ يمنع الضَيْمَ طُولُهَا
وإنَّ أمير المؤمنين لعـــالمٌ ... بتأويل ما وصَّى العبادَ رسولُهَا

ثم ارتحل فى أثرها حتى وصلا مكة ، فنزلت النَّوار على بنت منظور بن زبّان زوجة عبدالله بن الزبير رضى الله عنه ، ونزل الفرزدق على ابنه حمزة ، وقال :

أصبحتُ قد نزلتْ بحمزة حاجتِى ... إن المنوَّه باسمه الموثوقُ (٤)
بأبى عُمارة خيرمَنْ وَطِئَ الْحَصَى ... وجرت له فى الصالحين عروقُ
بين الحـوارىِّ الأغرّ وهاشمٍ ... ثم الخليفةُ بعـدُ والصِّدِّيقُ

فكان كلُّ ما أصلح حمزة بن عبد الله من شأن الفرزدق نهاراً أفسده بنت منظور ليلًا ، حتى غلبت النَّوار ، وقضى ابن الزبير عليه ، فقال :

أمَّا البنُونَ فلم تُقْبَلْ شَفاعتُهمْ ... وشُفِّعَتْ بنتُ منظور بن زبّانَا (٥)
ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزراً ... مثل الشفيع الذى يأتيك عريانَا

فلما سمع ابن الزبير شعره ، توقَّف فى أمره ، فلقيه يوماً بباب المسجد ، فضمَّه إلى الحائط ، حتى كادت تُزهَق نفس الفرزدق . وكان الزبير فى غاية من القوّة ، ثم

---

(١) ديوانه ٦٠٤ ، ٥ النقائض ٦٠٤ ، طبقات الشعراء ٢٨١ (٢) الشارف : الناقة المسنة.
(٣) يستبسلها : يأخذ بولها بيده . (٤) ديوانه ٥٧٠ .
(٥) ديوانه ٨٧٣ ، النقائض ٨٠٥ ، طبقات الشعراء ٢٨٢ .

هزّه وتركه خائفاً . ثم دخل على النَّوار ، فقال لها : إمّا أن تُتِعِّى زواج ابن عمّك وإلا قتلتُه ، وأرحت المسلمين من شرّ لسانه ، فقالت له : ولا بدّ أن تقتله ؟ قال : ولا بدّ ، فعطفها عليه رَحِم القرابة ، وقالت : لا والله لا أدَعَهُ للقتل ، قد رضيته . فتزوّجها ، فحكم عليه ابن الزبير بمهر مثلها عشرة آلاف درهم ، فسأل : هل بمكة أحد يعينه ؟ فُدلَّ على سلم بن زياد ، وكان ابن الزبير قد حَبَسه ، فقال :

دَعِى مُغْلِقِى الأبواب دون فعالهمْ ومُرّى بمسرّى لِى هُبلْتِ إلى سَلْمِ (١)
إلى مَنْ يرى المعروف سهلاً سبيلَه ويفعل أفعال الكرام التى تَنْمِى

ثم دخل على سَلْم ؛ وأنشده القصيدة ، فقال : هى لك ومثلها لنفقتك ، فقبض عشرين ألفاً ، فدفع مهرَها ، فدخل بها ، وأحبلها قبل أن تخرج من مكة ، ثم خرج بها ، وهما عديلان فى محمل ، وكانت أبداً تخالفه وتسبّه ، لأنها كانت صالحة الدِّين ، وكان هو ردىء الدين ، زانياً قاذفاً للمحصنات ، فكانت تكرهه .

ومن ملح أخبارها أنه راود امرأة شريفة على نفسها ، فامتنعت عليه ، فتهدَّدها بالهجاء ، فاستعانت بالنَّوار ، فقالت : واعدِيه ليلة ؛ ثم أعلمينى . ففعلت ، وجاءت النَّوار ، ودخلت الحجَلة مع المرأة ، فلما دخل الفرزدق البيت ، أمرت الجارية فأطفأت السراج ، وبادر الحجَلة والنَّوار فيها ، وهو لا يشكّ أنها صاحبة الدار ، فواقعها . فلما فرغ قالت : يا عدوّ الله ، يا فاسق ! فعرفها ، وعلم أنه قد خُدِع ، فقال لها : وأنت هى ! يا سبحان الله ! ما أطيَبك حراماً ، وأبردك حلالاً ! فلم تزل تؤذيه بلسانها حتى أبغضها .

فحدَّث أبو معقل راويته ، قال : قال لى الفرزدق يوماً : امض بنا إلى حلقة الحسن ، فإنى أريد أن أطلِّق النَّوار ، فقلت : إنى أخاف أن تتبعها نفسُك ، ويشهد

(١) ديوانه ٧٧٥

عليك الحسن وأصحابه ، قال : امض بنا ، فجئنا حتى وقفنا على الحسن فقال : كيف أصبحتَ يا أبا سعيد ؟ قال : بخير ، كيف أصبحت يا أبا فِراس ؟ قال : لتعلمنَّ أن النَّوار طالق منى ثلاثاً ، فقال الحسن وأصحابه : قد سمعنا ، قال : فانطلقنا ، فقال الفرزدق : يا هذا ، إنَّ فى قلبى من النَّوار شيئاً ، فقلت : قد حذَّرتك ، فقال :

ندمتُ ندامةَ الكُسَعىّ لمّا ... غدت منِّى مطلَّقةً نوارُ[1]
وكانتْ جَنَّتِى فخرجْتُ منها ... كآدم حين أخرجه الضِّرارُ
ولو أنى ملكت يدِى ونفسِى ... لأصبح لى على القَدَرِ اختيارُ
وكنت كفاقئٍ عينيه عمداً ... فأصبح ما يُضىء له نَهارُ

وتوفّى سنة عشر ومائة .وفيها مات جرير وابن سيرين والحسن ، فقالت امرأة بصريَّة : كيف يفلح بلد مات فقيهاه وشاعراه ، وأضافت جريراً إلى البصرة لكثرة قدومه إليها ، ومسكنه باليمامة . وأخباره تطول ، وإنما ذكرنا منها ماتعلَّق بالنَّوَار معه .

[ذكر خبر الكسعىّ وقوسه]

وأما الكُسَعىّ فرجل منسوب إلى كُسع ، قبيلة باليمن ، واسمه محارب ابن قيس، وبندامته يُضرب المثل؛ يقال: أندم من الكُسعىّ[2]، وقيل: إنه من بنى سعد بن ذبيان ، وقيل : اسمه عامر بن الحارث .

ومن حديثه أنه كان يرعَى إبلاً بوادٍ كثير العشب والخُمط؛ فبينما هو يرعاها بَصُرَ بِذَنَبةٍ على صخرة ، فقال : ينبغى أن تكون هذه قوساً ، فجعل يتعهَّدها ويقوّمها حتى أدركت، فقطعها ، فلما جفّت اتّخذ منها قوساً ، وأنشأ يقول :

(١) ديوانه ٣٦٣ .
(٢) ثمار القلوب ١٣٤ ، الميدانى ٢ : ٣٤٨

يا ربّ وَفِّقنى لنَحْتِ قوسِى فإنَّها من لذَّتى لنفسِى
وَانفع بقوسِى وَلدى وَعِرْسِى أنحتُها صَفْراء مثل الوَرْسِ
* صَلْداء ليست كَقِسِىّ النُّكْسِ *

ثم دهنها وَخطمها بوتَر ، وَاتّخذ من بُرايتها خمسة أسهم ، وَجعل يقلِّبها فى كفّه ، وَيُنشد :

هنّ وربى أسهمٌ حِسَانُ يلذّ للرّامِى بها البَنَانُ
كأنما قوّمها مِيزانُ فأبشروا بالخصبِ يا صبيانُ
* إن لم يعقنى الشُّؤمُ والحِرمَانُ *

ثم أتى قُتْرَةً[1] على موارد حُمُر ، فكمن فيها ، فمرّ به قطيعٌ ، فرمى عَيْراً منها بسهم ، فأخطه - أى أنفذه - وجازه ، وأصاب الجبل ، فأورى نارا ، فظنّ أنه أخطأه ، فأنشأ يقول :

أعوذ بالله العزيز الرَّحْمَنْ من نكد الجدّ معاً والحرْمَانْ
مالى رأيت السهم بين الصَّوّانْ يُورى شَراراً مثل لون العِقْيانْ
* فأخلَف اليوم رَجَاءَ الصِّبْيَان *

ثم مرّ به قطيع آخر ، فرمى عيْراً فأخطه السهم ، فصنع صنيعه الأوّل ، فانشأ يقول :

لا بارك الرَّحْمٰن فى رَمْى القُتَرْ أعوذ بالخالق من شرّ القَدَرْ
أأخط السهم لإرهاق الضَّرَرْ أم ذاك من سوء احتيالٍ ونَظَرْ
* أم ليس يغنى حَذَرٌ عنه قَدَرْ *

---

(١) القترة : ناموس الصائد .

ثم مرّ به قطيع آخر فرمى عيْراً ، فأمخطه السهم ، فصنع صنيعه الأوّل ،فأنشأ يقـــول :

ما بال سهمى يوقد الحُبَـاحِبَا قد كنت أرجو أن يكون صَائِبَا
فأخطأ العَيْر وولّى جانبـــاَ فصار رأيى فيـه رأياً خَائِبَا

ثم مرّ به قطيع آخر ،فرمى عَيْراً بسهم فأمخطه السهم ، وصنع ما صنع أولاً ، فأنشأ يقول :

يا أسفاً للشُّؤْم والجدّ النَّـكدْ فى قوسِ صدق لم تزيَّن بأَوَدْ
أخلف ما أرجو لأهلٍ وَوَلَدْ فيها ولم يغنِ الحِذَار وَالجَلَدْ
* فخاب ظنّ الأهلِ جمعاً والوَلَدْ *

ثم مرّ به قطيـع آخر ،فرى عَيْراً بسهم ،فأمخطه السهم ،وصنع كما صنع أولًا ، فأنشأ يقول :

أبعد خمس قد حفظْتُ عَدَّهَا أحمِل قوسِى وأرِيدُ رَدَّهَـــا
أخزى الإله لينها وشَدَّهَـــا والله لا تسلم منى بعدَهـــاَ
* ولا أرجِّى ما حييت رِفْدَهَا *

ثم أخذ القوس ، فـكسرها على حجر وبات ، فلمّا أصبح أبصر الأعيار الخمسة مطروحة حوله ، فأسف وندم على كسر القَوْس ، وعضّ على إبهامه فقطعها تلهفاً ، وأنشأ يقول :

ندمت ندامةً لو أنّ نفسى تطاوِعُنِى إذاً لقطعتُ خَمْسِى
تبيَّن لى سَفَـاهُ الرأى مِنِّى لَعمرُ أبيك حين كسرت قَوْسِى

المقامة العاشرة وتعرف بالرحبية

حكي الحارث بن همام قال : هتف بي داعي الشوق ، إلى رحبة مالك بن طوق ؛ فلبيته ممتطياً شملة ، ومنتضياً عزمة مشمعلة . فلما ألقيت بها المراسي ، وشددت أمراسي ، وبرزت من الحمام بعد سبت راسي ، رأيت غلاماً أفرغ في قالب الجمال ، وألبس من الحسن حلة الكمال .

* * *

هتف بي ، أي دعاني ، يقال : هتف بي هتفاً وهتافاً : دعاه ، وهتفت الحمامة : مدّت صوتها . والشوق : تحرك الحبّ ، يريد أنّ شوقه إلى الرّحبة يهيج عليه حتى سار إليها ، وجعل له داعياً مجازاً . والرّحبة : مدينة شهيرة من عمالة الفرات ، بناها مالك بن طَوْق ، ولِيَها فنُسبت إليه ، وإليها تنسب الثياب الرحبيّة ، وتعرف برحبة الشأم ، وهي على يسار الطريق هي والرّقة في استقبالك الفرات جائيا من حرّان ، وهي في آخر ديار ربيعة ، وأول بلاد الشأم والفرات ، بين ديار ربيعة والشأم ، فإذا عبرته صرت في حدّ الشام .

[ذكر مالك بن طوق]

ومالك - كنيته أبو كلثوم - بن مالك بن عتّاب بن سعيد بن زهير بن جُشم ابن بكر بن حبيب بن عمرو بن غَنْم بن ثعلب . وقال حَبيب يمدحُه ويذكر الرّحَبة :

يامالِ قـد علمتْ ربيعـةُ أنَّهُ ما كان مثلُك فى الأراقِمِ أرقمُ[١]
طالت يدِى لمَّـا رأيتُك سالمـاً وأُنيخ عن خَدَّىّ ذاك العِظْلِمُ[٢]
وشممت ترب الرّحبة العبقَ الثّرى وشفى صَدَاى البحرمنها الخِضْرِمُ[٣]
كم حلَّ فى أكنافها مِنْ معدمٍ أمسى بها يأوى إليـه المعدِمُ

وقال فيه:

رأته فى النوم عتَّابٌ فقال لهـا ذوو الفراسة : هذاصفوة الكَرَمِ[٤]
فجاء والنَّسب الوضَّاح جاء به كأنه بُهْمَةٌ فِيهِمْ من البُهَمِ[٥]
طعَّان عمرو بن كلثوم ونا ئلُه إنَّ السيورَ التى قُدّتمن الأدَمِ[٦]
لو كان يأمل عمرو مثلَه خلفاً[٧] من صُلْبِهِ لم يجد للموت من ألمِ

يقول هذا فى اتصاله بنسب عمرو بن كلثوم ، وأين هذا من قول دعبل يهجوه :

الناس كلُّهمُ يعـــدو لحاجَتِهِ ما بين ذى فرحٍ مِنْهُمْ ومهمومِ[٨]
ومالكٌ ظلَّ مشغولاً بنسبته يَرُوم منها بناء غير مهدُومِ[٩]
يبنى بيوتاً خراباً لا أنيسَ بها ما بين طَوْقٍ إلى عمرو بن كلثوم

---

(١) ديوانه ٢٧٥ ، والأراقم بنو تغلب .
(٢) الديوان : « وأنحت عن خدى » . والعظلم ، كزبرج : نبت يصبغ به .
(٣) الخضرم : الماء الكثير .
(٤) ديوانه ٢٦٨ .
(٥) البهمة : الشجاع .
(٦) النائل : العطاء . والأدم : الجلد .
(٧) الديوان : « ولما » .
(٨) ديوانه ١٤٤ ، ديوان المعانى ١ : ١٨١ .
(٩) الديوان « خرابا غير مرموم » .

وكان ملكا شجاعاً ، جواداً ممدوحا أميراً على الجزيرة مسكن قومه بنى ثعلب .

* * *

قوله « لبّيته » ، أى أجبته . ممتطياً : راكباً . شِمِلّة : ناقة سريعة . منتضياً : مجرّدا . عزمةً مشمعلَّة ، أى عزمة سريعة لاتوانىَ فيها . المراسى : هى محابس السفينة . أمراسى : حِبالى ، يريد أنه استعدّ للإقامة وترك السفر ، وضرب لذلك المثل بإلقاء المراسى وشدّ الأمراس . برزت : خرجت وظهرت . سَبْت : حَلْق ، ومتى دخل أهل المشرق الحمام حلقوا رءوسهم . أفرِغ : وُضع ليصنع . والقالَب : الذى تطبع فيه الدراهم ، ودِرْهم مفرغ ، إذا أذيبت فضته وصُبَّتْ فى قالَبه ، فيريد أنَّ هذا الغلام لإفراط حسنه أفرغ فى قالب الجمال .

[نبذ وحكايات وأشعار مما ورد فى الحسن والجمال]

ونذكر فى هذه المقامة من أوصاف الحسن والجمال ما أمكن ، ونُضيف إلى ذلك ما قيل فى الملمان من الأشعار الحِسان ممّا يليق بهذا المكان وندعها من كلّ مقامة يقع فيها ذكر الملمان . قال ابن عبد ربه : الحسن أحمر ، وقد تضرب فيه الصّفْرة مع طول المكث فى الكِنّ والتضمّخ بالطيب كما تضرب فى بيضة الأدحىّ . وقال أعرابىّ :

وما تطيّبت من صفراء خالية كالعاج صفّرها الأكنانُ والطِّيبُ

وقال آخر :

كأنّ لون البيض فى الأدحىِّ لونكِ لولا صفرة الجادىِّ

يريد أنها تضمّخ بالجادىّ ، وهو الزعفران ، وصفرة النعمة لا تبلغ صفرته .

وقالوا : إن الجارية الحسناء تتلون بلون الشمس ، فهى بالضّحَى بيضاء ، وبالعشى صفراء ، قال الأعشى :

بيضاء ضحوتها وصفـــراء العشية كالعرَارَه[1]

العَرار : البهار .

وقال الحريرىّ فى الدرّة :فأما[2] قولهم فى الحسن : أحمر ، فمعناه أنه لا يكتسب ما فيه من الجمال إلا بتحمّل مشقة يحمرّ[3] منها الوجه ، كما قالوا : السَّنة الحمراء للمجدبة[4] ، وكَنَوْا عن الأمر المستصعب بالموت الأحمر ، وأما قوله :

هِجانٌ عليها حُمرة فى بياضِهـا تروق لها العينان والحسنُ أحمرُ

فإنه عنَى به الحسن فى حمرة اللّون مع البياض ،دون غيره من الألوان .

وقالوا فى الجارية : جميلة من بعيد ،مليحة من قريب ، فالجميلة الّتى تأخذ بصرك جملة ، فإذا دنت منك لم تكن كذلك ، والمليحة التى كلما كرَّرتَ بصرَك فيها زادتْكَ حسناً .

وقيل : الجميلة السمينة ؛ من الجميل ، وهو الشحم[5]، والمليحة البيضاء من المُلحة[6]؛وهى البياض ، والصَّبيحة كذلك من الصبح لبياضه .

وقالوا : إن الوجه الرَّقيق البَشَرة الصافى الأدِيم إذا خجل يحمرّ ، وإذا فرق يصفرّ ، ومنه قولهم : ديباج الوجه ، يريدون تلوّنه من رقّته .

وقال عديُّ بن زيد فى تلوّن الوجه :

حُمرة خلط صفرة فى بياضٍ مثل ما حاك حائكٌ دِيباجا

---

(١) ديوانه ١٥٣ ، والعرارة : شجر لها نور أصفر .

(٢) درة الغواص ١٠٤.

(٣) الدرة : « يحمار » .

(٤) الدرة : « للسنة المجدبة حمراء » .

(٥) فى القاموس : « الجميل : الشحم الذائب » .

(٦) فى القاموس : « الملحة : بياض يخالط سواد » .

وقال ابن عبد ربه فى ذلك :

يالؤلؤًا يَسْبِي العقـــولَ أنيقَا وَرَشًا بتقطيع القُلوبِ رَفِيقَا[1]
ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثـله دُرًّا يعود من الحياءِ عَقِيقـَا
وإذا نظرتَ إلى محاسن وجهِهِ ألفيْتَ وجهك فى سَنَاه غريقـَا
يامن تقطّع خَصْرُهُ من رِقّةٍ ما بالُ قلبك لا يـكون رَقِيقَا !

وأعاد معنى: « درًّا يعود من الحياء عَقِيقًا » ، فى بيت آخر فقال وأحسن :

كم سَوْسَنٍ لَطَفَ الحياءُ بلونه فأصاره ورداً على وجَنَاتِهِ

قالت امرأة خالد بن صفوان لخالد: لقد أصبحتَ جميلاً ، قال : وكيف ذاك وما فِي رداء الحُسْنِ ولا عموده ولا بُرْنسه ! قالت : وما ذاك ؟ قال : عموده الشَّطَاط[2] ، ورداؤه البَيَاض ، وبرنسه سَوَاد الشعر .

وقالوا: الحَلاَوة فى العينين ، والجمال فى الأنف ، والحسن فى الوجه ، والملاحة فى الفم .

وقال بعضهم : الظرف فى القدّ ، والبراعة فى الجِيد ، والرّقة فى الأطْراف والخَصْر ، والشأن كلّه فى الـكلام ، والمدار على العقل .

وقال علىّ بن عبيد الريحانىّ : الحسن تناسبُ الصورة ، وزينته اعتدال الحركة ؛ ثم مالا يحسن اللسان الترجمة عنه من خفّة الروح والقبول .

وسئل عن اختياره من الحُسن ، فقال: أمّا ما يمـكن نعته فَخَلَّتَان

---

(١) مطمح الأنفس ٥٢

(٢) الشطاط : الطول وحسن القوام.

وثلاثة بينهما ، ليست من صفة اللسان تعجبنى صورة أكثر نعتها الملاحة ، وبراعة بفصاحة ، والخلّة الثالثة نسميها مَراح الروح وشكل النَّفس وملهبة الشوق ، وبمقدار تمكّن الثالثة من القلب يستحكم سلطان الهوى على العقل ، فهذه زبدة هذا الباب .

وأحسن الحسن ،ما لم يُجْلَبْ بتزيين وتضييق ، وتحلية وتزويق ، وأطيب الطيب أنفاس عَبِقةٌ من كبدسليمة ، ومزاج معتدل ، وثغر نقيٌّ ،قال امرؤ القيس:

ألم ترَ انِي كلّما جئتُ طَارِقاً وجدْتُ بها طيباً وإن لم تطيَّبِ[1]

ويحكى أن سيبويه كان يقرأ على الخليل بن أحمد منتقباً ، لئلا يشغله بحسنه عن تعليمه . ومعنى «سيبويه» بالفارسية رائحة التفاح ، وكان يقال : إنه أطيَبُ الناس رائحة ومع تحفّظ الخليل وورعه ، فكان إذا استأذن عليه سيبويه يقول : مرحباً بزائرٍ لا يملّ .

وكان أبو حاتم السجستانى يختم القرآن فى كل أسبوع ، ويتصدّق كلّ يوم بدينار ، ومع هذا الفضل كان يميل بحبّه إلى أبى العباس المبرّد ، وكان أبو العباس يلزم حلقته وهو غلام وسيم ، فقال فيه :

ماذا لقيتُ اليومَ من مُتَمَجِّنٍ خَنِثِ الكلامِ[2]
وقف الجمال بوجهِهِ فسمتْ له حدقُ الأنَامِ
حركاتُه وسكونُه يُجنَى بها ثمر الاثامِ
فإذا خلوتُ بمثله وعزمت فيه على اغترامِ[3]
لم أعْدُ أفعالَ العَفَا ف ،وذاك آكدُ للغرَامِ
نفسى فداؤك يا أبا العباس ياجلّ اعتصَامِي

(١) ديوانه ٤١ .
(٢) الشعر والخبر فى ابن خلكان ١ : ٢١٨ ، والأبيات الثلاثة الأخيرة فى نزهة الألباء ١٩٠
(٣) ابن خلكان : « اعتزام » .

فارحمْ أخاك فإنه نَزْر الكَرى بادى السَّقام
وأذِلّه مادون الحرا م فليس يَرْغَبُ فى الحرَام

والوَلُوع فى الجمال سجيَّة ركبها الله فى الأولياء وأكابر العلماء ، فمن دُونهم من السُّوقة والغوغاء . وعلى قدر ذكاء الأرض يَطيب زرعها ، وعلى قدر طِيب التربة يطيب تبْعُها ، فمنها العذب والأجاج وما بينهما ، وعلى قدر شرف النفس يكون حبّها ، فمنه المستحسن ومنه المستقبح .

* وكلّ إناء بالذى فيه ينضحُ *

فى كتاب الوشاح : العشق إذا تزيّن بالعفاف فهو معنى شريف ، ويتلو قوله تعالى : ﴿ الأخِلَّاءُ يَوْمَئذٍ بَعْضُهمْ لبعضٍ عَدُوٌّ إلَّا المُتَّقِين ﴾[1] ؛ فمن اتقى الله فهو خليل .

وذهبت طائفة من المتكلّمين البغداديين إلى أن الله تعالى إنما امتحن الناس بالهوى ، ليأخذوا أنفسهم بطاعة من يهوَوْنه ، وليشقّ عليهم سخطه ، ويسرّهم رضاه ؛ فيستدلّوا بذلك على قدر طاعة الله تعالى . لأنه لامِثْلَ له ولا نظير ، وهو خالقهم غير محتاج إليهم ، ورازقهم مبتدئ المنن عليهم ، فإذا أوْجَبُوا على أنفسهم طاعة لسواه كان هو تعالى أولى أن يُتَّبع رضاه .

قالوا : ولا ينبغى للعاقل ولا للجاهل أن ينكِر علاقة شخص بشخص ، وحنين شكل إلى شكل ، ومؤالفة إلفٍ إلى إلفٍ ، فالقلوب صافية قابلة ، والعيون إليها ناقلة .

وقالوا : لاعاشق على الأغلب إلا موفورَ النَّعماء ، مكفىّ كدّ المعيشة ؛ لأنه من فراغ نفسه ورقّة حاشيته .

---

(١) سورة الزخرف ٦٧

وقد قيل : إن جميلاً وبُثينة لوقعدا لينتين دون غداء وعشاء لبزق كلُّ واحد منهما فى وجه صاحبه .

ومن شرط المعشوق أن يكون ممّن يؤيس ويُطمع، ويستتر ويلمع ، ويبدو ويُحجَب ، ويلين ويصعُب ، ويُرضى ويُسخط ، ويقرُب ويشحَط ، كما قال أبو الطيب :

وأحْلى الهوى ما شكَّ فى الوصل رَبُّه
فى الهجر فهو الدَّهرَ يَرْجُو ويتَّقى[1]
وبين الرّضا والسخط والقرب والنّوى
مجـــالٌ لدمـــعِ المقلةِ المترقرِقِ

والحسن أول سعادة المرء ، ورائد اليُمْنِ ، وسائق النُّجح ؛ لأن الله تعالى بلطفِ الحكمة ، وبِشرف الإبداع والصنعة ، لم يخلق الصورة مختارة الصفات ، سليمة من الآفات ، إلاَّ عن فضل الاحتفاء ، ولم يطابقها من الأخلاق إلاَّ بما يناسب جمالها من العقل والصفاء . وقلّما تجد الخلُق إلاّ تبعاً للخلقة ، تناسباً يطّرد، وأصلا لا ينعكس ، وإجماعاً لا ينفرد ، وما خلق الله نبيًّا قطّ إلا وقد بهر أهلَ زمانه بحسنه وإحسانه ؛ فإذا نظرتَه لأوّل وهلةٍ رأيتَه أحسنهم صورة ، وأتقنهم بِنْيةً ، فهو أولَى مرتبة ، وأعلى منقبة .

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : «إنّ الله لا يعذِّب حِسان الوجوه ، سُود الحدَق» .

وورد عليه وفد عبد القيس ، وفيه غلام وضىء الوجه ، فأقعده وراء ظهره ، وقال : إنما أتِيَ أخى داود من النّظر .

وقد أكثر الشعراء فى وصف الحسن ؛ فمن أحسن ذلك ما قال علىّ بن بسّام ؛ وكأنه يصف الفتى الذى ذكره الحريرىّ :

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٠٤ ، وفيه البيت الأول بعد الثانى .

يامَنْ تسرْبَل بالملاحة وارْتَدَى فعليه تعتكف العيونُ إذا بَدَا
فيرى هِلالاً زاهراً ويرى قضيباً ناضراً ويُرى كثيباً أملَدَا
فإذا نهضت ترجرجا وإذا سفرت تبلجا وإذا مشيت تأوّدَا
فترى الجبين كتاج ملك زانَهُ درّ تراه مفرّقا ومنضَّدَا
ويجولُ ذاك الرَّشح فى أقطاره كالياسَمين جرَى به قَطْرُ النَّدَى
الوجه فضىٌّ أحاط بوجنتىْ ذهبٍ ، فأنبتَ عارضين زَبَرْجَدَا
وفمٌ عقيقىٌّ تضمّن لؤلؤا رَطْباً ونظم فوق ذاك زُمرّدَا

ولأبى إسحاق الخفاجىّ[1] :

وأغيدَ أهدى نَرْجِساً من محاجرٍ وَغَنى فأبْدَى سَوْسَناً من سوالفِ
وقد ماجَ مِنْ عِطْفَيْهِ ماء شبيبةٍ تَعبٌ ولا أمواجَ غيرُ الرَّوادِفِ
تطلَّع مثل الرمح بسطة قامةٍ وفتكةَ ألحاظٍ ولِينَ مَعاطِفِ

ولابن وكيع :

يامَنْ إذا لاحتْ محاسنُ وجهه غفرت بدائعُها جميعَ ذنوبِهِ[2]
إ كان فى تَعْذِيب قلبى راحةٌ لك فاجتهد بالله فى تعذيبِهِ

ولأبى إسحاق الخفاجىّ :

ياربّ وضّاح الجبين كأنما رسمُ العِذار بصفحتيه كتَابُ[3]
تُغْرَى بطلعته العيون ملاحةً وتبيتُ تعشَقُ عقلَه الأَلْبَابُ
خُلِعَتْ[3] عليه منَ الصَّباحِ غلالةٌ تَنْدَى ومن شفق السَّحاب نِقَابُ

---

(١) هو أبو إسحاق بن إبراهيم بن أبى الفتح بن خفاجة ، والأبيات فى ديوانه ٣٣٦ .
(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٣٤٠ ، وبعده هناك :
النَّجْمُ يَعْلَمُ أنَّ عينِىَ فى الدُّجَى معقودة بطلوعه وغروبه
(٣) ديوانه ٣٣٧ .

ولأبى نواس :

أساء فزادته الإساءة حُظْوَةً حبيبٌ على ما كان فهو حبيبُ
يعدّ علىّ الواشيان ذنوبَهُ ومن أين للوجهِ الجميل ذنوبُ !

ولأبى إسحاق الخفاجىّ :

تعلقته نَشْوانَ من خمرِ ريقةٍ له رشفها دونى، ولى دونها السُّكْرُ[1]
ترقرق ماء مُقْلَتاىَ ووجْهُهُ ويذكَى على قلبى ووجنتِه الجَمْرُ
أرقّ نسيبى فيه رِقَّةَ حسنِهِ فلم أدر أىٌّ قبلها منهما السِّحْرُ
وطبْنا معاً ثغرا وشعرا، كأنما له منطقى ثغرٌ، ولى ثغرُه شعرُ

* * *

وَقَدِ اعْتَلَقَ شَيْخٌ بِرُدْنِهِ، يَدَّعِى أَنَّهُ فَتَكَ بِابْنِهِ، وَالْغُلاَمُ يُنْكِرُ عِرْفَتَهُ، وَيُكْبِرُ قِرْفَتَهُ، وَالْخِصَامُ بَيْنَهُمَا مُتَطَايِرُ الشَّرَارِ، وَالزِّحَامُ عليهما يجْمَعُ بَيْنَ الْأَخْيَارِ وَالْأَشْرَارِ، إلى أَنْ تَرَاضَيَا بَعْدَ اشتطاطِ اللَّدَدِ، بالتَّنَافُرِ إِلَى وَالِى الْبَلَدِ، وَكَانَ مِمَّنْ يُزَنُّ بِالْهَنَاتِ، وَيُغَلِّبُ حُبَّ البنينَ عَلَى الْبَنَاتِ، فَأَسْرَعَا إِلَى نَدْوَتِهِ، كالسُّلَيْكِ فى عَدْوَتِهِ.

* * *

قوله :« وقد اعتلق شيخ بُرْدنه »، أى تعلّق بكمه وأطراف ثوبه . فَتَك : قتل ، والفتك : أن تأتىَ رجلا آمنا منك وتقتله، أو تكمن له فى موضع لا يعرف بك، فإذا أتاك قتلته ، ثم سُمِّىَ من هجم على الأمور العظام فاتكاً ، فإذا أدخلت

(١) ديوانه ٣٠٣ :

رجلا منزلك أو موضعاً لا مغيث له فيه ، فقتلته فذلك الغيلة ، فإن كان رجلاً يخافك فأمنته وآنسته حتى آمنك ، ثم قتلتَه فذلك الغدر. عِرْفته: معرفته. يُكْبِر: يراه أمراً كبيراً قِرْفته : تهمته ، وقد قرفتُه بذنب ، إذا حملتَه عليه واتّهمته به، وشبّه ما يلحق كلّ واحد منهما من أذى صاحبه بشرر النار اشتطاط اللَّدَد: اشتداد الخصام . التنافر : التحاكم . يزنّ بالهنات : يتّهم بالقبائح ، والهِنات : الدواهي والهَن والهَنة من الكنايات العامّة التي يكنى بها عن كلّ شيء ولا يقتصر بها على شيء دون شيء .

[فصل في ذكر بعض أخبار الولاة]

قوله «ويغلِّبُ حبَّ البنين على البنات» نذكر هنا من الولاة المتّهمين بهذه الهنات ما يليق بالموضع . قال أهل الأخبار: إن القاضي يحيى بن أكثم[1] ، كان مشتهراً بحبّ الغلمان ، وإن أهل البصرة رفعوا أمره إلى المأمون قبل اتّصاله به ، وقالوا فيه: إنه قد أفسد أولادَهم، وظهرت منه الفواحش، وأنه القائل في صفة الغلمان:

أربعةٌ تُعشَقُ ألحاظُهمْ ... فعين من يعشقهم ساهِرَهْ
فواحد دنياه في وجْهِهِ ... منافقٌ ليست له آخِرَهْ
وآخر دنياه منقوصةٌ ... من خَلْفِه آخرةٌ وَافِرَهْ
وثالث فاز بكلتيهما ... قد جمع الدُّنيا مع الآخِرَهْ
ورابعٌ قد ضاع ما بينهمْ ... ليست له دنيا ولا آخِرَهْ

فاستعظمها المأمون وعزله عنهم .

ثم اتصل بعد ذلك يحيى بالمأمون ، ونادمه ، فخرج معه في يوم عيد ، وقد ركب الجند أمامه ، ويحيى يحادثه ويضاحكه ، فنظرت إلى غلام أمْرَد من أولاد

(١) انظر أخبار يحيى بن أكثم في ابن خلكان ٢ : ٢١٧ ـ ٢٢٤ وأخبار القضاة لوكيع ٢ : ١٦١ ـ ١٦٧ ، وتاريخ بغداد ١٤ : ٢٩١ ـ ٢٠٤ ، وثمار القلوب ١٥٦ ، ١٥٧

الجند فى غاية الفَراهة ، عليه ثوب حرير أخضر ، ودرع موشّاة مزرّرة بالذهب . فالتفت إلى يحيى ، وقال له : ما تقول فى هذه البضاعة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ هذا لقبيح من إمام مثلك مع فقيه مثلى ، قال : فمن الذى يقول :

قاضٍ يرى الحدّ فى الزُّناة ولا ... يَرى على من يلوطُ من باسِ

قال : من عليه لعنة الله وغضبه ، ابنُ أبى نعيم[1] ، الذى يقول :

أميرنا يرتشى وحاكمُنا ... يلوط والشرّ بيننا راسى

قاض يرى الحدّ .. البيت، وبعده :

لا أحسِب الموت ينقضى وعلى الـ ... أمّة والٍ لآل عبّاسِ[2]

قال : أوصحيح هذا ؟قال : نعم ، قال : يُنْمَى إلى السّند ، وإنما مازحناك، ثم قال المأمون فى الغلام :

أيُّها الراكب ثوباً ... ه حريرٌ وحديدُ
جئت للعيد وفى وجـ ... ـهك للأعين عيدُ
أنت جندىّ ولكن ... فيك للحسن جُنودُ

وفى يحيى يقول ابن أبى نعيم :

ياليتَ يحيى لم يلده أكتُمُهُ ... ولم تطأ أرضَ العراق قدمُهْ[3]
ألوَطُ قاضٍ فى البلاد نعلمُه ... أىّ دواةٍ لم يُلِقْهَا قلمُهْ
* وأىّ جُحْرٍ لم يلجْه أرقَمُهْ[4] *

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٠٢ .
(٢) ديوانه ٩٨٧
(٣) المضاف والمنسوب ١٥٨ .
(٤) ذكر فى المضاف والمنسوب بعد الأبيات : « فقال يحيى : دواتك أيها الأمير » .

وهذا كقول الآخر :

* يُدْخِل الأفعى إلى خِيس الأسَدْ *

ويحيى خُراسانىّ من مَرْو . وبلغ من تحكّمه على المأمون أن فرض لأربعمائة غلامٍ مُرْد ، واختارهم حِسان الوجوه يركبون لركوبه ، فقال راشد بن إسحاق :

خليلىّ انظرا متعجِّبيْنِ ... لأظرف منظرٍ تقْلاَه عَيْنِى
لفرضٍ ليس يُقبل فيه إلا ... أسِيلُ الخدِّ حُلْوُ المقلتيْنِ
يقودهم إلى الهيجاء قاضٍ ... شديدُ الطَّعْن بالرُّمح الرَّدَيْنِى
إذا شهدَ الوغى منهم غلامٌ ... تَجَدَّل للجبين وللْيدَيْنِ
وبات الشيخُ منحنياً عليه ... وصُدغاه تحاذِى الركبتيْنِ

وقال فيه :

وكنا نرجِّى أن نرى العدْل بيننا ... فأعقبناه بعد الرّجاء قنوطُ
متى تَصْلح الدّنيا ويصلُح أهلُها ... إذا كان قاضِى المسلمين يلُوطُ

* * *

وكان القاضى أبو القاسم علىّ بن محمد التنوخىّ[1] مولعاً بالغلمان ، وكان له غلام اسمه نسيم ، فى نهاية من الحسن ، وكان يُؤثره على سائر غلمانه ، ويخصّه بتقريبه واستخدانه ، فكتب إليه بعض من يأنسُ به :

هل علَى مَنْ لامُه مدغمٌ ... لاضطرار الشعر فى ميم نسيمِ

فوقّع تحت البيت : نعم ، ولم لا ![2]

وسنذكر من شعره فى هذه المقامة ما يستملح .

(١) انظر أخبار تاريخ بغداد ١٢ : ٧٧ ، وابن خلكان ١ : ٣٠٣ .
(٢) الخبر فى معجم الأدباء ١٤ : ١٦٦ .

وممن كان يميل إلى الغلمان من الأمراء أبو العشائر الحمدانى[1] الذى يقول فيه المتنبى :

فيا بحرَ البحُور ولا أورِّى ... ويامِلكَ الملوك ولا أحاشِى[2]
كأنَّك ناظرٌ فى كلّ قلبٍ ... فما يخْفى عليك محلٌّ غَاشِ

وقال بعض الرواة : دخلت على أبى العشائر أعودُه من علّة، فقلت : ما يَجد الأمير ؟ فأشار إلى غلام قائم بين يديه ، كأنّ رضوان قد غفل عنه فأبَق من الجنة ، ثم أنشأ يقول :

أسْقَمُ هذا الغلامُ جسمى ... بما بعينيه من سَقَامِ[3]
فتورُ عينيه من دَلاَلٍ ... أهدى فتوراً إلى عظامِى
وامتزجتْ روحُه بروحِى ... تمازُجَ المـــاء بالمـدام

ولأبى العشائر :

سطا علينا ومَنْ حاز الجمال سطَا ... ظبىٌ من الجنة الفردوس قد هَبَطَا
له عِذاران قد خُطّا بوجنتِـــهِ ... فاستوقفا فوق خدّيه وما انبَسَطَا
وظلّ يخطُو فكلٌّ قال من شغَفٍ : ... يا ليتَه فى سواد الناظرين خَطَا !

ومع هذا الميل ، كان نزيه النفس ، رفيع الهمة ، سليم الناحية ، وكان فى الجود غاية ، وفى الشجاعة نهاية ، وفى الشعر آية . وإذا كان المتنبى الذى هو أشعرُ الناس عند الأكثرية ، يقول حين عوتب فى آخر أيامه على فتور شعره : قد تجوَّزت فى شعرى ، وأعفيت طبعى ، واغتنمت الراحة ، مذ فارقت آل حمدان ، ومنهم الذى يقول - يعنى أبا العشائر :

(١) انظر أخبار أبى العشائر فى يتيمة الدهر ١ : ٧١ - ٧٥ .
(٢) ديوانه : ٢١١ .
(٣) يتيمة الدهر ١ : ٧٢ :

أأخا الفوارِس لو رأيتَ مواقِفِي والخيْل من تحت الأسنةَ تَنْحَطُ (١)
لقرأتَ منها ما تخطُّ يد الوغى والبيض تُشكِل والأسنة تنقُطُ

فهكذا تستعار المعانى البديعة فى الألفاظ الرفيعة ؛ فما ظنك بمنْ يُثْنى عليه المتنبى هذا الثناء !

* * *

وممَّن وصف غلاماً فأحسن ، الأمير تميم بن المعزّ صاحب مصر ، حيث يقول:

وباتَ ضجيعى منهُ أهيفُ ناعمٌ وأدعجُ وَسْنَانٌ وألْعَسُ أشنبُ (٢)
كأنَّ الدجى من لون صُدغيه طالعٌ
وشمس الضُّحى فى صحن خدَّيه تَغْرُبُ

وقال أيضاً :

يا ليلةً باتَ فيها البدرُ معتنِقى وكانت الشمس فيها بعض جُلاَّسِى (٣)
وبتُّ مستغنياً بالثَّغر عن قدَحِى وبالخدود عن التُّفاح والآس

وقال أيضاً :

وَرْدُ الخدود أرقُّ من وَرْدِ الرياض وأنعَمُ (٤)
هذا تَنَشَّقُهُ الأنو فُ وذَا يقبّله الفَمُ
فإذا عدلت فأفضل الـ وردين ورد يُلثَمُ

قوله : « ندوته » ، أى مجلسه .

[ذكر السُّلَيْك بن السُّلَكة]

والسليك ، هو ابن السُّلَكة ، معروف بأمّه ، وكانت أمَةً سوداء شديدة

(١) يتيمة الدهر ١ : ٧١
(٢) ديوانه ٤٠، ٤١ . اللعس : سواد مستحسن فى الشفة . والشنب : رقة وعذوبة وبرد فى الأسنان .
(٣) ديوانه ٢٥٠ .
(٤) ديوانه ٣٨٦ .

السواد ، وكان هو أسود، وأبوه عمرو بن سنان بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم السعدىّ التميمىّ .

وكان يسبق الخيلَ على رجليه ، وكان من العدَّائين ومن رَجْلَى العرب - وهم الذين يسعَوْن على أقدامهم ، ويسبقون الخيل ، فيستغنون بأرجلهم عنها - وكان من أشجع الناس ، وكان لا يُغيرُ إلاَّ وحده ، وكان يقال له : الرئبال :

وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمرو بن معد يكرب، فقال: أىّ العرب كان أبغضَ لك أن تلقاه ؟ فقال : أمَّا من مَعدّ فعدىّ بن فَزارة ومُرّة بن ذبيان وكلاب بن عامر وشيبان بن بَكْر وشقّ بن عبد القيس والأراقم من تَغلب ، ثم لو جُلْت بفرسى على مياه سعد ماخفت هَيْجَ أحدٍ ؛ما لم يلقنى حُرَّاها أوعبداها، قال : أما حُرَّاها فعامر بن الطفيل وعُتيبة بن الحارث بن شهاب ، وأما عبداها فعنترة الفوارس وسُليك المقانب .

وأما عدْوته المذكورة ، فيقال : إنه أحاط به عدوّه فنزا نزوة عُدّ فيها أربعًا وعشرون خطوة ، وعُدَّ أيضاً فى نزوة للشّنفَرى إحدى وعشرون خطوة.

ويقال فى المثل : أعدى من الشّنفَرَى ، وأعدَى من السليك .

فأما الشّنفرَى فإنه أغار على بَجيلة مع تأبَّط شرًّا وعمرو بن براق ، فرصدتْهم بجيلة على الماء ، فقال تأبّط شرًّا: إنّ بالماء رصَدًا ، فقالا: ليس عليه أحد ، ولا بدّ من وروده ، فورد الشّنفرَى ثم عمرو ، فقال تأبّط شرًّا : القوم إنما يريدوننى ، فلذلك لم يعرضوا لكما ، وإذا وردتُ أنا الماء فسيشدّون علىّ ، ويأسرونني ، فاذهب يا شَنْفَرى ، كأنك تهرب ، وكن فى أصل ذلك القرن ، فإذا سمعتَنى أقول: خذوا خذوا ، فتعال فأطلقنى ، وقال لعمرو : إنّى سآمرك أن تستأسِر لهم ، فلا تبعد ، ولا تمكّنهم من نفسك . ثم ورد الماء ، فشدُّوا عليه ، وكتفوه ، وفعلا

ما أمرهما ، فقال : تأبّط شرًّا : يامعشر بَجيلة ، هل لكم فى أن تيسّروا فداءنا ، ونستأسر لكم ابنَ براق ؟ قالوا : نعم . فقال ياعمرو : هل لك فى أن تستأثر ويُيَاسروا فى الفدَاء ؟ قال : حتى أروّضَ نفسى شوطًا أو شوطين ، فجرى الأوّل كالريح ، والثانى كالخيل ، ثم أرَادأن يجرِىَ ثالثًا ، فجعل يقع ويقوم فشلاً ؛ يُطمعهم بذلك ، فقال لهم تأبّط شرًّا : خذوا خذوا ، فأسرعوا إليه بأجمعهم ، وهوَى الشّنفرَى كالريح فقطع وثاقه ، ثم أحضروا ثلاثتهم ، فنجوْا ، فقال تأبّط شرًّا من قصيدة :

ليلةَ صاحوا وأغرْوا بى سِرَاعَهُمُ ... بالعيْكَتَيْنِ لدَى عَمْرو بن بَرّاق (١)

لا شىء أسرعُ منّى غير ذِى عُذُرٍ ... أوذى جناح بجنب الرِّيْدِ خَفّاقِ (٢)

فالثلاثة عدّاءون ، والمثل مقصور على الشّنفرَى .

وأما السُّليك ، فرأته طلائع جيش لبكر بن وائل ، جاءوا مجرّدين ليُغيروا على تميم ، فقالوا : إن عَلِمَ السليك بنا أنذر قومه ، فبعثوا إليه فارسين على جوادين ، فلمّا صاحاه خرج يمحص (٣) كأنه ظبى ، فطارداه يوماً أجمع ، ثم قالا : إذا كان الليل أعيا فنأخذه ، ووجدا أثر بَوْله قد خدّ (٤) فى الأرض ، فقالا : قاتله الله ! ما أشدّ متنه ! فتبعاه ليلتهما : فلما أصبحا وجداه قد عثر بأصل شجرة ، فندر (٥) منها كمكان قدمه ، وسقطت قوسُه فى جريه فانخطمت ، فوجدا قطعه منها قد ارتزّت (٦) بالأرض ، فقالا : ما بعد هذا شىء ، والله لاتبعناه بعد هذا . ومرّ السليك إلى أهله ، فأنذرهم ، فكذّبوه لبعد الغاية ، فقال :

---

(١) من قصيدا مفضلية ٢٧ ـ ٣١ ، مطلعها :

ياعيدُ مالكَ من شوقٍ وإيراقِ ... ومرّ طيفٍ على الأهوال طرّاقِ

والعيكتان : موضع ، ورواية المفضليات : «معدى ابن براق» ، ومعدى مصدر ميمى من عدا يعدو .

(٢) العذر : جمع عذرة ، وهى ماأقبل من شعر الناصية على وجه الفرس . والريد : الشمراخ الأعلى من الجبل ، يقول : لاشىء أسرع منى إلا الفرس ، وإلا الطائر الجارح الذى يأوى إلى الجبل .

(٣) يمحص : يسرع (٤) خد فى الأرض : شقها .

(٥) ندرت : سقطت . (٦) ارتزت : أثبتت .

يكذّ بنى العَمّ ان: عمرو بن جندب وعمرو بن سعد والمكذّبُ أكذبُ[1]
ثكلتكما إن لم أكنْ قد رأيتُها كراديس يَهديها إلى الحيّ موكِبُ
كراديس فيها الحوْفزان وحولَه فوارس همّامٍ متى يَدْعُ يركَبُوا

فصدّقه قوم، فنجوا، وكذّبه آخرون، فورد عليهم الجيش فاكتسحهم.

ومن شعر السليك يرثى فرسه — وكان يقال لها النحّام — وأنشدها المبرّد فى باب التشبيه من الكامل:

كأن قوائم النّحّام لمّا تحمّل صُحبتى أُصُلاً مَحارُ[2]
على قَرْماء عاليةٌ شَواهُ كأنّ بياض غرّتِه خِمارُ[3]
وما يُدْرِيك مافقرى إليه إذامَاالقومُ وَلّوْا أوأغارُوا[4]
ويُحضِرفوق جُهْدِ الحضْرِ نَصًّا يصيدُك نافِلاً والمخُّ رارُ[5]

أى يصيدلك. ونافلا: ثانيا، وَرار: ذائب من الهزال؛ وحكاية السُّليك عن أبى عبيدة، وحكاية الشّنفرَى عنه وعن الشيبانىّ؛ وكلتاهما على اختصار.

ونزل على جماعة من كنانة ضيفاً، فأكرموه، وجمعوا له إبلاً كثيرة، وأعطوْه إياها، وكان قد كبِر وشاخ، وذهبت قوّته، وانتقص عَدْوُه، فقالوا له: إنْ رأيتَ أن ترينا مابقى من عَدْوك! قال: نعم، ابغُوا لى أربعين شاباً،

---

(١) الأغانى ٢٠ : ٣٥٣ (طبعة بيروت)
(٢) الكامل ٣ : ٣ : ٦٩، قال فى شرح هذا البيت : المحار : الصدفة، يريد الملاسة وأنه قد ارتفعت قوائمه للموت. والأصل : جمع أصيل، والأصيل : العشى.
(٣) قال أبو العباس : قرماء، ممدودة : اسم موضع : وشواه : قوائمه.
(٤) قال أبو العباس : ولوا أو أغاروا؛ إذا طلبوا أو هربوا.
(٥) قوله « بصيدك »، أى يصيد لك، يقال : صدتك ظبيا، قال الله عز وجل : ﴿ وإذا كالُوهم أوْ وزنوهم يُخْسِرُون ﴾.

وأتونى بدِرْع ثقيلة عظيمة ، فأتوا بِهَا واختارُوا من شبانهم أربعين أقوياء عدّائين ، فلبس سُليك الدرع ، ثم قال للشبّان : الحقونى ، ثم عَدَا عَدْواً وسطاً ، وعدا الشبان وراءه جهدهم ، فلم يلحقوه حتى غاب عنهم ، ثم كرّ راجعاً حتى عاد إلى القوم وحدَه يخطِر ، والدرع عليه ، وسبق الشبّان .

وخرج فى ليلة مقمرة يطلب الإغارة ، فغلب عليه النوم آخر الليل ، فبينما هو ملتفّ بكساء ، جَثَم عليه رجلٌ مثله ، شديد البأس ، عظيم القوّة ، وأمسك على يديْه ، ومنَعه التحرّك ، وجعل يهزه ويؤذيه ، ويقول له : اسْتأسرْ ياخبيث ، فاجتهد سليك حتى خلّص إحدى يديه ، فضمّ الرجلَ إليه ضَمّة ، وعصره عصرة ، فضرَط ، فقال له : أضرِطاً وأنت الأعلى[1] ! فأرسلها مثلا ، فلما تخلّص منه ، قال له : من أنت ؟ قال : أنا رجل افتقرت فقلت : لأخرجَنّ ولا أرجع إلى أهلى حتى آتيَهم وأنا غنىّ . فقال له السُّليك : انطلق معى ، فانطلقا فوجدا ثالثاً ، قصّتُه قصّتُهما ، فاصطحبوا حتى أتوا وادياً لِمُراد ، فلما أشرفوا عليه إذا فيه نَعَمٌ ، قد ملأ نواحيه من كثرته ، فقال لهما السُّليك : كونا قريباً منّى حتّى آتىَ الرِّعاء ، فأعلمُ علمَ الحىّ : أهو قريب أم بعيد ؟ فإن كان قريباً رجعت ، وإن كان بعيداً أوحيت إليكما بقولى فأغيرا . فأتى الرِّعاء فاستخبرهم عن الحىّ ، فأخبروه ببعد الحىّ ، وأنهم إن طُلبوا لم يدرَكوا ، فقال للرّعاء : ألا أغنّيكم ؟ قالوا : بلى ، فرفع صوته فغنّى :

يا صاحِبَىّ ألا لا حىّ فى الوادِى ... سوى عبيدٍ وآمٍ بين أذْوَادِ[2]

أتنظران قــريبا ريث غفلتِهِمْ ... أم تغدوان فإن الريح للعَادِى!

فلما سمعا ذلك أتياه ، وطردوا الإبل فذهبوا بها ، ولم يبلغ الصريخُ الحىّ ، حتى فاتوا بالإبل[3] .

(١) الميدانى ١ ٤٢٠ ، جمهرة الأمثال ١ : ١٣٠

(٢) الريح هنا : القوة

(٣) الشعر والشعراء ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

قال ابن الأعرابى : آم مقلوب آيم ، وهم العزّاب ، جمع أيّمة[1] .

وكان السّليك من أدلّ الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكها ، وكان يستودع الماء بيضَ النعام فى الشتاء ، ويدفنه فى المفاوز العظيمة ، فإذا كان الصيف وانقطعت إغارة الخيل أغار على رَبيعة ، وشرب من ذلك الماء . وكان يقول : اللّهم إنى أعوذ بك من الخَيْبة ، وأما الهيبة فلا هيبة .

* * *

قوله : «عِدْوته» ، العِدوة بالكسر : الحالة ، وبالفتح المرة الواحدة ، فيريد الحريرىّ أن إسراعهما إلى الوالى كان كعدوة السليك .

* * *

فَلَمَّا حَضَرَاهُ ، جَدَّدَ الشَّيْخُ دَعْوَاهُ ، واسْتَدْعَى عَدْوَاهُ . فاسْتَنْطَقَ الْغلامَ وَقَدْ فَتَنَهُ بمَحَاسِنِ غُرَّتِهِ ، وَطَرَّ عَقْلَهُ بِتَصْفِيفِ طُرَّتِهِ ، فقالَ : إِنَّهَا أَفِيكَةُ أَفَّاكٍ ، عَلَى غَيْرِ سَفَّاكٍ ؛ وعَضِيهَةُ مُحْتالٍ ، على مَنْ لَيْسَ بِمُغْتَالٍ . فقال الوالى للشَّيْخ : إِنْ شَهِدَ لَكَ عَدْلانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِلاَّ فاسْتَوْفِ مِنْهُ اليَمِينَ . فقال الشيخُ : إِنَّهُ جَدَّلَهُ خاسِياً ، وَأَفَاحَ دَمَهُ خالِياً ، فَأَنَّى لِي شاهِد ، ولَمْ يَكُنْ ثَمَّ مُشاهِدٌ ! ولَكِنْ وَلِّنِي تلقِينَهُ الْيمين ، ليَبين لك : أيصدق أم يَمِينُ ! فقال له : أنت المالك لِذَلِكَ ؛ مَعَ وَجْدِكَ الْمُتَهالِك ، على ابنِك الهالك !

* * *

واستدعى عدواه ، أى طلب إغاثته وأعداه الحاكم : أغاثه . استنطق : أمره أن ينطِق ، وقد بيّن سرّ هذا الاستنطاق فى الرابعة والثلاثين عند شراء الغلام

(١) نقله فى اللسان ١٨ : ٤٧ .

قال : « ثم استنطقته عن اسمه ، لا لرغبة فى علمه ، بل لأنظر أين فصاحته من صباحته ، وكيف لهجته من بهجته[1] » . وكذلك لم يُرِد الوالى أن يستنطقَه ليقول حجته ؛ بل ليعلم حلاوته من صورته التى فتنته . وقد ذكرنا أنّ فائدة الحسن إنما تدور على اللسان .

[إبراهيم النظام وبعض أخباره وشعره]

وهذا الاستنطاق هو الذى ذهب بإبراهيم بن سيار النظّام ، الّذى هو إمام فى علم الكلام إلى علاقة غلام ؛ وذلك أنه لَقِىَ غلاماً جميلَ الوجه ، مقبول الصورة ، فاستحسنه ، وتصوّر فيه الصورة الباطنة المناسبة لخِلْقته الظاهرة ، فقال له : يا غلام ، إنه لولا ما سبق من قول الحكماء ، لما جعلوا السبيل لمثلى إلى مثلك بقولهم : لا ينبغى لأحد أن يصغُر عن أن يقول ، ولا أن يكبُر عن أن يقال له ، لَمَا أنستُ إلى مخاطبتك ، ولا انشرح صدرى إلى محادثتك ، لكنّه سبب الإخاء وعَقْد المودّة ، ومحلُّك من قلبى محلّ الروح من جسد الجبان ، فقال له الغلام ـ وهو لا يعرفه : لئن قلتَ ذلك أيُّها الرجل ، لقد قال أستاذُنا إبراهيم بن سيار النظام : الطباع تجاذِب ما شاكلها بالمجانسة ، وتميل إلى ما قارنها بالموافقة ، وكيانى مائل إلى كيانك بكلّيّتى ؛ ولو كان الذى انطوى عليه لك عَرَضاً لم أعتدّ به ودًّا ، ولكنه جوهر جسمى ، فبقاؤه ببقاء النفس ، وعدمه بعدمها ، وأقول كما قال الهذلىّ :

فتبيّنى أنى بكم كلِفٌ ثم اصنعى ما شئت عن عِلْمِ[2]

فقال له النظام : إنما كلّمتك بما سمعت ، وأنت عندى حَسن الصورة غلام ، ولولا أنّ محلّك محلُّ مقيم ما تعرّضت لك ، ثم اعتلقه النظام بعد ، وقال فيه جريا على علمه :

---

(١) متن المقامات ص ٣٧٣ (طبع الحسينية) .
(٢) ديوان الهذليين ٩٧٣ ، ونسبه إلى أبى صخر (طبعة مدنى) .

توهّمه طرفى فآلم خـــدّه فصار مكان الوهم من نظرى أثرُ[1]
وصافحـــه كفّى فآلم كفّه فمِنْ لمس كفّى فى أنامـــله عَقرُ
ومرّ بفكرى خاطراً فجرحتُه ولم أر خَلْقا قطّ يَجْرحه الفِكرُ[2]

وقال فيه أيضا :

وإذ تأمّل فى الزّجاجة ظلّه جرحته لحظة مقلة الظّلّ

وقال فيه أيضا :

أفرغ من نور سمـــاويٍّ مصوّرٍ فى جسم إنسىّ
وافتقر الحسن إلى حسنه فجلّ عن تحديد كيفىّ

وقال فيه :

يا مشرقا ملأَ العيـــو ن فلحظها ما يستقلّ[3]
أوفى على شمس الضُّحى حتى كأنّ الشمس ظلّ
أتريد قتلِى عامِـــداً ولَقَتْلُ مثلِى ما يحلُّ !

فصرّف فى شعره من صناعته ، وأبدع فى تخيله ببراعته .

* * *

قوله: «غرّته» ، أى وجهه . طَرّ ،أى قطع وأذهب . تصفيف طُرّته: شعره المعتدل على جبهته . أفيكة أفّاك : كِذبة كذّاب . سفاك: قتّال . عضيهة: بهتان. وباطل . مغتال : قاتل الغيلة . استوف : استكمل . جدّله : صرَعه وألقاه على

(١) أمالى المرتضى ١ : ١٨٨
(٢) بعده فى أمالى المرتضى:

يمرّ فمن لينٍ وحُسْنِ تعطّفٍ يقال به سكرٌ وليس به سُكْرُ

(٣) ديوان المعانى ١ : ٢٣١

الجَدَالة . وهى الأرض : خاسياً : متباعداً ممنوع الكلام ، كأنه قهره ومنعه أن يصيح عند قتله ، ولذلك لم يجد عليه شاهداً ، وأصله الهمزة فسهّله ليوافق «خاليا» إن أخذتَه من خسأت الكلب ، وإن أخذته من خَسِيَ البصرُ إذا كلّ ، فلا تسهيل فيه ، ومعناه قريب من الأوّل ، أى أنه أضعفه بالضرب حتى لم يستطع الكلام ثم قتله . أفاح دمه ، بحاء مهملة : أراقه . قال أبو زيد فى نوادره : أفحت دمه ففاح فَيْحا وفيحانا ، وأنشد :

نحن قتلنا الملك الجَحْجَاحَا ولم نَدَعْ لسارحٍ مُراحَا

* إلاّ دياراً أو دما مُفَاحَا *

وقال أبو حاتم : أراد : ودما مفاحا أى مُهراقا . خاليا : بمعنى «منفردا» . أنّى ، بمعنى كيف . مُشاهد : من شاهد حاله وحضر عليها . وَلِّنى : مَكِّنّى . تلقينه : تفهيمَه وإلقاءه عليه . يمين : يكذب . وجْدك : حزنك . المتهالك : الكثير التفاوت ، وتهالكت المرأة عليه : تراخت عليه ، وتكاسلت ، قال الأعشى[1] :

تهالك حتى ينكر المرء عقلَه وتُسْبى الحكيم ذا الحجى بالتَّقَتّلِ[2]

* * *

فَقَالَ الشَّيْخُ لِلْغُلَامِ : قُلْ : وَالَّذِى زَيَّنَ الْجِبَاهَ بِالطُّرَرِ ، وَالْعُيُونَ بِالْحُوَرِ ، وَالْحَوَاجِبَ بِالْبَلَجِ ، وَالْمَبَاسِمَ بِالْفَلَجِ ، وَالْجُفُونَ بِالسَّقَمِ ، وَالأُنُوفَ بِالشَّمَمِ ، وَالْخُدُودَ بِاللَّهَبِ ، وَالثُّغُورَ بِالشَّنَبِ ، وَالْبَنَانَ بِالتَّرَفِ ، وَالْخُصُورَ بِالْهَيَفِ ، إِنِّي مَا قَتَلْتُ ابْنَكَ

(١) اللسان ـ فيح ، ونسبه إلى أبى حرب بن عقيل .
(٢) ديوان الأعشى ٣٥٣
(٣) الديوان : « حتى ينكر المرء عقله » . وتهالكت المرأة فى مشيها : تمايلت .

سَهْواً وَلاَ عَمْداً ، وَلاَ جَعَلْتُ هَامَتَهُ لِسَيْفِي غِمْداً ، وإلاَّ فرَمَى اللهُ جَفْنِي بالعَمَشِ ، وَخدِّي بالنَّمَشِ ، وَطُرَّتِي بالْجُلَحِ ، وَطَلْعِي بالْبَلَحِ ، وَوَرْدَتِي بالْبَهَارِ ، ومِسْكَتِي بالْبُخَارِ ، وَيَدْرِي بالمحاقِ ، وفِضَّتِي بالاحْتِرَاقِ ، وشُعَاعِي بالإظلامِ ، ودواتي بالأقلام .

* * *

قوله : « الذى زيّن الجباه بالطرر . . » ، إلى آخر يمينه ، إنما ذكر صفات الحسن شيئاً بعد شيء ، ليُرى هذا الوالى كمال الغلام ، فيشتدّ حبّه فيه ، فإذا ذكر صفةً من صفاته نبّه الوالى بذكرها على النّظر إليها ، فوجدها كما يصف ، فهو الآن فى هذه اليمين يجلُو محاسنَ الغلام عليه .

الطّرَر : جمعُ طُرّة ، وهى اعتدال الشعر على الجبهة ، والطُّرّة عندهم أن يقطع للجارية من مقدّم ناصيتها حتى لا يبلغ الشعر حاجبيها ، فيبقى ما بين شعر ناصيتها وحاجبيها من جبهتها نقيًّا ، والشعر عليها معتدل ، كطُرّة الثوب ثم تسمّى الشعور الحسان طُرَراً .

أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ثلاث فاتنات : الشَّعر الحسَن ، والوجه الحسن ، والصوت الحسن » .

عائشة رضى الله عنها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ملائكة السماء يسبّحون بذوائب النساء وبلحى الرجال ، فيقولون : سبحان الّذى زيّن الرجال باللحى ، والنساء بالذوائب » .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد أحدكم أن يتزوّج المرأة فليسأل عن شعرها كما يسأل عن وجهها » .

قالوا : الشعر الحسن يزيد الوجه حسناً وجمالا ، وقال ابن صارة[1] ـ وكأنه وصف طرة هذا الغلام ـ يصف بها أبا الفضل بن الأعلم ، وكان من أجمل الناس وأذكرهم[2] فى علم النحو والأدب ، وقرأ النحو قبل أن يلتحىَ ، فقال فيه :

أكـــرم بحفرٍ اللبيب فإنه ... مازال يوضح مُشْكِلَ «الإيضاح»[3]
ماء الجمال بخـــدِّه مترقرقٌ ... فالعين منه تجول فى ضَحْضَاحِ[4]
ما خدّه جرحته عينى ، إنّمـــا ... صَبَغت غِلالَته دِمَاء جِراحِى
لله زانُ زبرجـــد فى عسجدٍ ... فى جوهرٍ فى كَوْثرٍ فى رَاحِ
ذى طُرَّةٍ سَبِجيَّة ذى غُـــرَّةٍ ... عاجيَّة كالليل والإصْبـــاَحِ
رشأٌ له خدّ البرىءُ ولحظـــه ... أبداً شريك الموت فى الأرْوَاحِ

* * *

[مما قيل فى أنواعِ الحسن والجمال]

ونذكر بعدهذا الحوَر فى العينين ، وهوشدة بياض البياض وسواد الكحل، وكلّ ذلك عندهم ممدوح . وقد أكثر الشعراء من وصف ذلك حتى لو تركنا ذكره لشهرته لكان لنا فيه عذر ، على أنّا نُلِمّ ببعض ما قيل فى ذلك ، وأمّا ما يزهّد فيه من ذلك ،ويقلّ ذكره فى أشعارهم فالزَّرَق ؛على أنه قد جاء فى حديث عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال:«الزّرَق فى العينين يُمْن».

---

(١) ط : « صارمة » ، تصحيف . (٢) نفح الطيب : «وأذكاهم» .
(٣) نفح الطيب ٥ : ٢١٣ ، ٢١٤ ، وكتاب الإيضاح فى النحو لأبى على الفارسى.
(٤) الضحضاح : الماء القليل .

وقال معاوية لضحار العبدىّ : إنك أحمر ، قال : والذهب أحمر ، قال : إنك لأزرق ، قال : والبازى أزرق .

ولبعض أصحابنا :

أحبّك أن قالوا بعينيك زُرْقَةٌ كذاك عِتاق الطير زُرْق عيونُهَا

وقال الصّنوبرىّ :

قالوا به زُرْقـــة ، فقلت لهمْ بذاك تمت خصالُهْ البَهِجَهْ[1]
ما كَحَل العين مثلُ زُرْقتهـا كم بين ياقوتة إلى سَبَجـهْ!

وقال آخر :

ما مثلُ ذا الظّبى فى الظِّباء الأزرق الأزرق القَبَـاء
يجول فى مقلتيْه طرفٍ فى زُرْقة المـاء والسماء
يا بأبى الشّعْر ما عليهمْ من ذلك النّور والبَهـاء
شُقْرَةُ شعـرٍ على بياضٍ شعاع شمس على هـواء

وكلّ هذا اعتذار جاء على وَفْق مدح سواد الألوان ، ولسواد الألوان فى التاسعة فصل مستطرف فقف عليه .

واختلفوا فى الحَوَر ، فقال أبوعبيدة : الحوراء : الشديدة بياض بياض العين فى شدّة سواد سوادها .

وقال أبوعمرو : الظبية الحوراء : السوداء العين الّتى ليس فى عينها بياض ، ولا يكون هذا فى الإنس إنما يكون فى الوحوش .

---

(١) يتيمة الدهر

وقال يعقوب : الحَوَر سعة العين وكبر المُقْلة وكثرة البياض .

وقال قطرب : الحوراء : الحسَنة المحاجر ، صغرت العين أم كبرت .

واشتقاق « ح و ر » يدل على صحة قول يعقوب وأبى عبيدة ؛ لأنهم إنما يوقعونه فى الغالب على البياض مثل الدقيق الحوارىّ للدرمك الشديد البياض ونحوه ، وقلّما يتفق شدة بياض العين إلاّ مع شدةّ سوادها ، ألاترى أن بياضها مع الزّرَق ليس هناك فى النقاء ، وقال القاضى التنوخىّ فى أحور :

حَوَرٌ بعينيه أطال تحيُّرِى ... ترك الدموع بخدِّىَ المتَعصفِرِ (١)

غصنٌ تأوّد فوق غُصْنٍ من نقاً ... ليل تبلّج عن نهارٍ مُسْفِرِ

كالشّمس إلا أنه متنفّس ... عن مسكةٍ متبسّمٌ عن جوهرِ

والبَلَج : أن يكون ما بين الحاجبين نقيًّا من الشعر ، وهو من علامات السياده عند العرب ، ويُتمدّح به ويُتيمن بصاحبه ، ويُتطيّر بمقرون الحاجبين ؛ ويقال : أبلج وأبلد ، وهى البلجة والبلدة ، قال كثير :

جميلُ المحيَّا أبلجُ الوجه واضحٌ ... حليم إذا ما زلزلته الزّلاَزِلُ

الفلَج : أن يكون بين منابت الأسنان تباعد ، وقد فلج ثغره فلَجاً ، وهو مستحبٌّ فى الثغر. قال وجيه الدولة : وهو مما يليق بهذا الموضع لذكره أوصافا ذكرها الحريرى رحمه الله هنا :

إذا عدم الرَّوْضَ المنوَّرَ ناظرِى ... أرانيه ظبيٌ فاتر الطّرْف أدعجُ

فصدُغاه ريحانِى وعيناة نَرْجسِى ... ومنْ ثغره لى أقحوان مفلَّجُ

وواحَرَ بَا من حسن وردٍ بخدِّه ... يُطيف به من عارضيه بنفسجُ

---

(١) الأبيات فى يتيمة الدهر ٢ : ٣١٨ .

(٢) بعده فى اليتيمة :

وأطالَ مِنْ ليلى وقصّر ليله ... أنّى سهرت وأنّه لم يسهرِ

الجفون : أغطية العيون ، ثم تسمَّى العين جفناً مجازاً .

والسقم : فتور العين ، ومن حَسَن التشبيه فى ذلك قول أبى نواس :

فطبْ بحديث من نديم مساعدٍ وساقية بين المراهق والحلْمِ[1]
ضعيفة كَرّ الطرف تَحْسِبُ أنَّها قريبة عهد بالإفاقةِ من سُقْمِ

وقال أيضاً :

وشادنٍ قال لى لمّـــا رأى سَقَمِى
وضعف جسمِىَ والدَّمع الذى انْسَجَمَا
أخذتَ دمعك من لفظى ، وجسمك من
خَصْرى ، وسُقْمَكَ من طرفى الّذى سَقِمَا

وقال ابن الرومىّ :

قلبى من الطرف السقيم سقيمُ لو أنّ من أشكو إليه رحيمُ

وقال ابن الزّقاق :

ومقلةِ شادنٍ أوْدَتْ بجسمى كأنَّ السُّقْمَ لى ولها لباسُ[2]
يسلّ اللّحظ منها مَشْرفيّـــا لقتلِى ثم يغمِـــــدُه النُّعَاسُ

ولأبى العلاء بن زهر فى مثل ذلك :

يا راشقِى بسهامٍ مالها غرضُ إلّا فؤادى وما منها له عِوَضُ

---

(١) ديوانه ٣٢ ، حماسة ابن الشجرى ١٩٥ ، وذكر البيت الثانى وبعده :

تفوّق مالى من طريف وتالدٍ تفوّقَ الصَّهباء من حلَب الكَرْم

قال : قوله « تفوق مالى » هو من الفواق ؛ وهو ما بين الحلبتين .

(٢) ديوانه ١٩٠

ومرضى بجفونٍ كلّها سَقَمٌ صَحَّتْ وفى طبعها التمريضُ والمَرضُ
امنن ولو بخيالٍ منك يؤنِسُنِي فقد يسدّ مسدّ الجوهر العَرَضُ

الشمم : ارتفاع فى لين الأنف ، وهو من علامات الجمال والسؤددِ ، قال الفرزدق :

بكفّهِ خَيْزُرَانٌ ريحُهُ عَبِقٌ من كَفِّ أَرْوَعَ فى عِرْنِينِهِ شَمَمُ[1]
يُغضِى حياء ويُغْضَى من مَهَابَتِهِ فلا يكلّمُ إلا حينَ يبتسمُ

وقال آخر :

فى باعه طولٌ وفى وجهِهِ نورٌ وفى العرنين منه شَمَمْ

وقال النابغة[2] :

* شمّ العرانين ضرّابُونَ للهَامِ *

اللهب : اشتعال النار بغير دخان ، فشبّه الحمرة فى الخدّ وضياءه بحمرة النار ، وكُنِيَ به أبو لهب لجماله .

وقال ابن وكيع ؛ فجمع السُّقم واللّهب :

واحزنى من جفون ظبيٍ أقام عُذْرِى بها عِذارُهُ[3]
أسقَم جسمى بسقم طَرْفٍ حيّرنى فى الهوى احْوِرَارُهُ
عجبت من جَمْرِ وجنتيه يحرِقُنى دونَهُ استعارُهُ
هو اختيارى فأبصروه[4] شاهدُ عقلِ الفتَى اختيارُه

(١) ديوان الحماسه ـ بشرح المرزوقى ١ ، ١٦ .
(٢) ديوانه ٧٣ . وصدره :
* مستحقبى حَلَقَ الماذىّ يَقْدُمُهُمْ *
(٣) يتيمة الدهر ١ : ٣٤٢ ، وفيه : « واحربى » .
(٤) اليتيمة : « هذا اختيارى » .

وله قريب منه :

كأنّ صدغاً له تراهُ ... وهو على خدّه مُدارُ[1]
بيتٌ من الحسن لى إليه ... حجٌّ مدى الدّهْرِ واعتمارُ

ولابن الزّقّاق :

بأبى من لم يدع لى لحظُه ... فى الهوى من رمقٍ منذُ رمَقْ[2]
جعلت نكهتُه فى ثغره ... عَبَقاً فى نَسَقٍ يسبى الحدَقْ
وبدت خجلتُه فى خدّهِ ... شفقاً فى فَلَقٍ تحت غَسَقْ

وقال الخفاجىّ[3] :

يابانةً تهتزّ فَيْنَانَةً ... وروضةً تنفحُ مِعْطَارَا
كم دمع عينٍ فيك قد أجريتُهُ ... وقلب صبٍّ فيك قد طارَا
كَنّى فسمّى قوسَه حاجباً ... رمزاً وسمّى النّبل أشْفَارَا
فإن رَمَى يجرَحُنى طرفُهُ ... لَحَظْتُهُ أجرحه ثَارَا
فيصبغُ الدرّ عقيقاً به ... وأصبغ الألوان أزْهارَا[4]
يُدِيرُ للأعيُنِ من وَجْهِهِ ... كَعْبَةَ حُسْنٍ حيْثُمَا دارَا
قد طبع الحسنُ به درهماً ... تسبك منه العين دِينَارَا
فلِى به عينٌ مجوسيّةٌ ... تعبد من وَجْنَتِهِ نَارَا

غيره :

وأغيد تَدْمى وجنتاه من اللّمْحِ ... تخلّق إلاّ مِنْ صدُودِىَ بالشُّحِّ
غَدَا قاتلى أن ظلت أجرَحُ خدّه ... متى صار بالقتل القصاص من الجُرْحِ!

(١) يتيمة الدهر ١ : ٣٣٣ .
(٢) ديوانه ٢٠٨ .
(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة ، ويعرف بالخفاجى أيضا ، والأبيات فى ديوانه ١٢٥ .
(٤) الديوان « وأصبغ النوار » .

الثغور : جمع ثغر وهو السنّ . وتقدّم الشنَب فى الثانية .

وقال العباس بن الأحنف فى طيب الفم :

ذكرتكِ بالتفّاح لمّا شممْتُهُ ... وبالرّاح لما قابلَتْ أوجهَ الشّرْبِ[1]
وتذكّرت بالتّفاح منكِ سوالفاً ... وبالرّاح طعماً من مقبّلِك العَذْبِ

وقال ديك الجنّ ، واسمه عبد السلام :

بأبى فمٌ شهد الضّميرُ له ... قبل المذاق بأنه عَذْبُ
كشهادةِ لله خالصةٍ ... قبل العيان بأنّهُ الرّبُّ

وقال أحمد بن محمد الغسانىّ :

له مبسمٌ برقّه خاطفٌ ... عقولَ الرجال إذا ما ابتسمْ
أقول له إذ بدا دُرّه ... شهدنا لصانعه بالحِكَمْ
أرَى الدّر تثقبه الناظمونَ ... ومانقبوا إذا فكيف انتظَمْ!

وقال أبو بكر البلوىّ :

تَقْطِفُ من ثَغْره ووجنَتِهِ ... أناملُ الطّرْفِ زهرةً عَجَبَا
شقيقها مُذهباً يُرَى خجلاً ... وأقحواناً مفضّضاً شَنَبَا

وقال ابن بشر الكاتب :[2]

ولم نَزَلْ ، والظلام حارسُنَا ... جسمَيْنِ مستودَعَيْنِ فى جِسْم
ألثمُهُ فى الدُّجَى وبرق ثنا ... ياهُ يريني مواقعَ اللّثْمِ

(١) ديوانه ٤٤
(٢) هو الحسن بن على بن بشر الكاتب ، والأبيات فى نهاية الأرب ٢ : ٢٠٤

ثم افترقنا عند الصَّبَاح وَقَدْ أثّر فيه كهيئة الخَـتْمِ

وقال الشريف الرضىّ :

بتْنَا ضجيعين فى ثَوْبىْ هوًى و تُقًى يلفّنا الشّوْق من فَرْقٍ إلى قَدَمِ (١)

وبات بارق ذاك الثّغر يُوضح لى مواقـعَ اللّثْم فى داجٍ من الظُّلَمِ

وقال المتنبى :

حِسان الثنّى ينقش الوشىُ مثلَه إذا مِسْنَ فى أثوابهنّ النّواعِمِ (٢)

ويبسِمْن عن دُرٍّ تقلّدن مثلَه كأنّ التراق وُشِّحَت بالمباسِمِ

فهذه معانٍ مختلفة فى أوصاف الثغر كلها حسان .

* * *

قوله : « والبنان بالترف » ، أى الأصابع باللين والنعمة ، وأحسن ماقيل فى ذلك قول النابغة :

بمَخَضَّبٍ رَخْصٍ كأنّ بَنَانَهُ عَنَمٌ يَـكادُ من اللّطَافَةِ يُعْقَدِ (٣)

فهذا تشبيه بديع .

وقال امرؤ القيس :

وتعطُو بِرَخْصٍ غيرِ شَثْنٍ كأنّهُ أساريعُ ظَبْيٍ أو مساويكُ إسْحِلِ (٤)

وقال غيره :

يا قمراً أبصرتُ فى مأتمٍ يندُب بِشجواً بين أتراب (٥)

---

(١) ديوانه ٧٢٣

(٢) ديوانه ٢ : ١١١ ، : وفيه : « فى أجسامهن » .

(٣) ديوانه ٣٠

(٥) ديوانه ١٧

(٦) لأبى نواس ، ديوانه ٣٦١ ، مختار الأغانى ٣ : ١٣٠

أبرزَه المأتم لى كارهـــاً ... من بين رايات وحُجَّابِ
يبكى فيُذرِى الدُّرّ من نرجس ... ويَلطُمُ الوَرْدَ بعُنَّـابِ

وقال عُكّاشة[1] :

سقيا لمنزلنا الّذِى كا به ... يوم الخميس عشيَّةً أصْحَابَا
إذْ نحنُ نُسْقَاهَا شَمُولاً قَرْقَفاً ... تدَعُ الصَّحِيح بعقلِه مُرْتَابَا
من كفّ جارية كأنّ بنانها ... من فضّة قد قُمِّعَتْ عُنَّابَا
وكأنّ يُمناها إذاضربت بها ... تُلْقِى على يدها الشِّمال حِسَابَا

وقال آخر :

وحوراء اللواحظِ بين قلبى ... وبين جُفونها حَرْبُ الْبَسُوسِ
ترى ماء النَّعيم يحولُ فيهـا ... كمثل الخمر فى صافِى الكئوسِ
كأنّ بنانَها أقـلام عاجٍ ... مرصّعة الرأس بآبنوسِ

ووصف الخصور بالهَيف ، وهو الضّمر والرقة ، وسنذكر معها مايستظرف، وقد تقدّم قول ابن عبد ربه :

يا مَنْ تقطّعَ خَصْرُه من رِقّةٍ ... ما بالُ قلبِك لا يكون رقيقا[2]

وقال ابن الرومىّ :

وَهَبَتْ له عَيْنِى الْهُجُوعَا ... فأثابها منه الدُّمُـــوعَا
ظبىٌ كأنّ بخَصْره ... من ضُمْرِه ظَمَأً وجُوعَا

(١) هو عكاشة بن عبد الصمد العمى ، منسوب إلى بنى العم ، من شعراء الأغانى ، والأبيات فى مختار الأغانى ٤ : ٥٠٨ .
(٢) مطمح الأنفس ٥٢ .

وقال عبيد[1] الله بن عبد الله :

سَلْمَى وما سَلْمَى تَفُوقُ المُنَى ... والحسْنَ أوصافا وأَلْوَانَا
وِشاحها يحسد خَلْخَالَهَا ... كجائعٍ يحسُد شَبْعَانَا

وقال كشاجم فى مقلوبه :

مسلولة الكلّ غير بطنٍ ... مثقلٍ فهى عنكبوتْ
حجُولها الدهرَ فى اضطرابٍ ... ووشْحها كاظمٌ صموت

وقال حبيب :

مَهَا الوَحْشِ إلا أن هاتَا أوانسٌ ... قَنَا الخطّ إلاّ أن تلك ذوابلُ[2]
من الهِيف لو أنّ الخلاخيل صُيِّرتْ ... لها وشُحًا جالت عليها الخلاخِلُ

أخذه القاضى ابن لبّال فقال :

جلوتِ لنا شيئا من الدّرّ عاطلاً ... بعيشِك لِمْ جنَّبْتِه الجِيدَ والنَّحْرَا
فقالت ولم تكذب خشيتُ سقوطَه ... وأومت إلىّ فيها فنظّمته ثَغْرَا
كذلك إن عَضّ السِّوارُ بِمِعْصَمِى ... وحاذرت أن يدميه حمَّلْتُه الخصْرَا

وأكثر ما يذكرون الخَصْر بالرّقة مع ذكر الكَفَل بالعِظَم ، كما قال ديك الجن :

وتمايلتْ فضحكتُ من أردَافِهَا ... عجباً ، ولكنّى بكيتُ لخصْرِهَا[3]
تسقيك كأس مُدامةٍ من كَفِّها ... ورديّةٍ ، ومُدامَةٍ مِنْ ثَغْرِهَا

وقال القاضى أبوحفص بن عمر :

---

(١) ط : « عبد الله » ، وهو عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وأخباره وشعره فى ابن خلكان ١ : ٢٧٣ ، والبيتان فى ديوان المعانى ١ : ٢٥٠ .
(٢) ديوانه ٢٥٦
(٣) الأغانى ١٤ : ٥٥ .

مشتْ كالغصن يثنيه النّسيمُ ويعــدُوه النّسيم فيستقيمُ
لها رِدْفٌ تعلّق من ضعيفٍ وذاك الرِّدْفِ لي ولها ظَلُومُ
يعذّبني إذا فكّرت فيه ويتعبها إذا رَامَت تَقُومُ
وما حُبِّي لها إلا عذَابٌ عليه من نَضَارَتِها نعيمُ

* * *

قوله: «سهواً». أى خطأ. والهامة: الرأس. وإلا فرَمى الله جَفْنى بالعَمَش، إنما ذكر العمش والنَّمش وما بعده لأنها أضداد لما تقدم، وعند الإشارة لها يتبيّن من الغلام عند الوالى أضدادُها، فيزداد حسناً.

* وبضِدِّهَا تتبيَّنُ الأشْيَاء *[1]

والعَمَش: انتثار شعر العينين. والنَّمَش: أخفى من البَرَش. الجلَح: الصَّلَع، وهو انحسار الشعر من النّزعتين، وفعله جَلَح الرجل واجْلَحّ، كاسودّ. والطّلع: قد تقدّم فى الثانية، وإذا علته خضرة سُمِّىَ بلحاً. والبَهار: نرجس المغرب، وهو أصفر، والورد أحمر، فدَعا له بعلّة تذهب جمال وجهه وتصفّر حمرة خده. والبخار: كالبخَر: النّتن. والمسكة: أطيب العطر، فدعا له بتغير الرائحة. وتقدّم أن أطيب الطيب أنفاس عبقة من كبد سليمة. وتقدّم فى الثانية معنى قوله: «ووردتى بالبهار» منظوماً، وقال الصابى فى أبخر:

نطق ابنُ نصرٍ فاستطارت جيفةٌ فى العالمين لنتن فيه الفاسدِ[2]
فكأنّ أهل الأرض كلّهمُ فَسَوْا متواطئين على اتّفاق واحِدِ

وقالت جنان فى أبى نواس:

فإذا ما أردت أن تحمد اللّـ ـهَ على ما أعطى وأولاك شُكْرَا
فليكن ذاك بالضمير فمن سَبَّحَ بالفسْو نال إثماً ووِزْرَا

(١) للمتنبى ديوانه ١ : ٢٢ ، وصدره :

* ونذيمُهم وبهمْ عُرفنا فَضْلَهُ *

(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٢٦٣ .

وقال آخر :

أهـدى زريق قطّهُ لقمةً قد لا كها فى فمِهِ الأبْخَرِ
فبادر القِطّ إلى دَفْنِهَا يحسبهامن بعض ماقد خَرِى

قوله: «وبدرى بالمحاق» ، المحاق: أن ينمحق ضوء القمر فلايبقى منه شىء. واحتراق الفضة : اسوادها . وشُعاعى بالظلام ، أى صَباحة وجهه ووضاءته بسواد اللحية ، أى عاجلنى لله بالالتحاء ، ويريد بهذا كلّه أن يكسوَ بياض وجهه سواد الشعر ، فيكسد ولا يُلْتَفَتُ إليه .

وقال ابن المعتزّ فى مثل هذا الدعاء :

يا ربّ إن لم يكن فى وصلِهِ طَمَعٌ وليس لى فرجٌ من طول هجرَتِهِ[1]
فاشْفِ السّقام الّذى فى طرف مُقْلتِه واستر ملاحَة خَدَّيْهِ بلحيتِهِ

ونقل لفظ احتراق الفضة من قول أبى الحسين الثّغرىّ[2]، وهو من شعراء اليتيمة:

لى حبيبٌ يزهَى بحسنٍ عجيبٍ وبقدٍّ مثل القضيب الرطيبِ
أحدقت بالسواد فضة خدَّيْـ ـه ، فقد أحرقت سوادَ القلوبِ

[ذكر العِذار والالتحاء]

ونذكر هنا مايليق بهذا الموضع مما قيل فى العِذار وفى الالتحاء مما مدح به وذُمّ ، قال ابن عبد ربه :

ومعذّرٍ نقش الجمال بمسْكِهِ خَدًّا له بدم القلوبِ مُضَرَّجا[3]
لما تيقّن أن سيف جفونِهِ من نرجسٍ جعل النّجاد بنفْسجا

وقال ابن صارة[4] :

(١) ديوانه ١ : ٧١
(٢) هو أبو الحسين محمد بن عمر الثغرى الكاتب ، من شعراء العراق ، والبيتان فى اليتيمة ٢ : ٣٤٦ . (٣) العقد ١ : ٣٣
(٤) ط : « صارمة » ، تصحيف ، والبيتان فى نهاية الأرب ٢ : ٨٦ .

ومعذّر رقّت حواشى حسنِه ... فقلوبنا حذَرًا عليـــه رِفَاقُ
لم يَكْسُ عارضَهُ السوادُ وإنّما ... نفَضت عليه سوادَها الأحْدَاقُ[1]

وقال عبد المحسن الصورىّ :

ومعتذر العِذار إلى فؤادى ... لجـــرمٍ سابقٍ من مُقْلَتَيْهِ[2]
وكم أعرضْتُ عنه فأعرضَتْ بى ... عن الأعراض خضرةُ عَارِضَيْهِ
ولمّا قلتُ إنّ الشّعر يسعَى ... لِقلبى فى الخلاصِ سَعَى عَلَيْهِ

وقال أبو القاسم الزّاهى :

لولا عِذارُك ما خلعتُ عِذَارِى ... لـكنْتُ فى وَزَرٍ من الأوْزَارِ[3]
ما كنتُ أحسبُ أنّ أعينَ أو أرَى ... تخطيطَ ليلٍ فى بياض نَهَارِ
حتى نظرتُ إلى عِذارك فاغتدَى ... سَقَمَ القلوبِ ونزهـةَ الأبصَارِ

وللمعتمد بن عباد :

تمّ له الحسنُ بالعِذَارِ ... واختَاطَ اللّيل بالنّهارِ[4]
أخْضَرٌ فى أبيضٍ تبدّى ... ذلك آسِى وذَا بَهَارِى
لقَدْ حَوَى مجلسى تماماً ... إن يكُ من ريقه عُقارِى

وقال ابن حمدون :

ظلّ على خـــدّه العِذارُ ... فافتضح الآسُ والبَهَارُ
وأبيضّ هذا واسودّ هذا ... واجتمع اللّيل والنّهَارُ
أغُضُّ عينى عنه لأنّى ... عليه من مُقْلَتِى أغَارُ

---

(١) والبيتان أيضا فى الذخيرة ١ : ١ : ١٢٣ .
(٢) يتيمة الدهر ١ : ٢٥٧
(٣) يتيمة الدهر ١ : ١٩٩
(٤) الذخيرة ١ ـ قسم ٢ : ١٥ ، ١ ـ ق ٢ : ١٤

فهذا كله حسن فى مدح العِذَار ؛ وإن كان النَّذيرَ بموت الجمال، فإذا تقوّى العِذار واسودّ ؛صاروا إلى نعيه ، كما قال أبو بكر البلَوىّ :

انظرْ إلى ميّتٍ ولـكنّه ... خِلْوٌ من الأكفانِ والغَاسِلِ
قد كتب الدهر على خدّه ... بالشّعر : هذا آخرُ الباطِلِ

وله فى ضدّه:

لمّا التحى مَنْ قد هويتُ ... وقلت رسمٌ قد دَثَرْ
عاينتُ من طـلّابه ... زُمَراً مـواصلةً زُمَرْ
وكذاك أصحاب الحديث ... نِفاقهم عند الـكِبَرْ

وكما قال أبو الحسن بن الحاجّ :

أبا جعفرٍ مات فيكَ الجمالُ ... فأظهر خدّك لُبْسَ الحِدَادِ
وقد كان ينبت زهرَ الرّياضِ ... فأصبَح يُنبِتُ شوكَ القَتَادِ
أبِن لى متى كان بدرُ السما ... ء يُدْرَك بالكونِ أو بالفَسَادِ !
وهل كنت فى الملك من عبد شمسٍ ... فأخشى عليك ظهورُ الفَسَادِ

وقال سعيد بن حميد فى غلام التحى :

هلّا وأنت بماء وجهك يُستقى ... روضُ الشّباب قليل شعر العَارِضِ
فالآن حين بدت بخدّك لحيةٌ ... ذهبت بحسنك ملء كفّ القابِضِ
مثل السّلافة عاد خمر عصيرها ... بعد اللّذاذة مثلَ خلّ الحَامِضِ

وقال علىّ بن بسام فى أخيه جعفر[1]:

يا مَنْ نَعَتْهُ إلىّ الإخوان لحيتُه ... أدبرتَ والدّهر إقبالٌ وإدْبارُ
قد كنتَ ممّن يهشّ الناظرون له ... تُغضّ دونك أسمـاعٌ وأبصَارُ
أيّامُ وجهك مصقولٌ عوارِضُه ... وللرّياض على خدّيك أنْوَارُ

(١) هو على محمد بن نصر بن بسام البغدادى ،والأبيات فى الذخيرة ١ ـ ق ١ : ١١٩ .

فيا لدهرٍ مضى ما كان أحسنَه ... إذ أنت ممتنعٌ ، والشَّرْط دِينَارُ
حانت منيَّتُه فاسودَّ عارضُه ... كما تُسوَّد بعد الميّت الدَّارُ

وفيه يقول أيضاً :

حانتْ وفاتُك يا أبا العباسِ ... فدع المكاس فلاتَ حينَ مكاسِ
ما بالُ وجهك بعد كثرة نُورِهِ ... قد سوَّدُوه بحالك الأنفاسِ !
أينَ الدَّنانيرُ التي عوّدتها ... هَيْهَات جاء الشعر بالإفلاسِ
كانت بخدّك ثيابه ديباجةٌ ... فاستُبدلت خِلساً من الأحلاسِ
وكذَا البناء فغيْر مرتفعٍ إذا ... كانت بليتُه من الآساسِ

وقال مُصعب المانجن :

قد ضافحتْ أقطارَ خدّك لحيةٌ ... تركتْه وهو مسوّدُ الأقطارِ
فكأنَّ خط الشَّعر في جَنَباتِهِ ... ليلٌ أقام على نُجومٍ أو نَهارِ

وكان لمحمد بن بشر بابان يُدخِل من الأكبر أصحابَه ، ومن الأصغر أحبابَه فجاء يوماً غلامٌ مليح ، وأراد الدخول من الأصغر على عادته ، فمنِع ، فجعل يخاصم البوّاب لإدلاله ، فبلغ ذلك ابن بِشْرٍ ، فكتب إليه :

قلْ لمن رامَ بجهلٍ ... مدخل الظَّبي الغريرِ
بعد أن علق في خدّيـ ... ـه مخلاةَ الشَّعيرِ
ليْتَهُ يدخلُ إن جا ... ءَ مِنَ البابِ الكبيرِ

وقال ابن الأبّار :

لستُ بصابٍ إلى معذّرْ ... بل أنا في حُبِّه معذَّرْ
لا أعشَق الظبي ذا لجامٍ ... لأنه في الظباء منكَرْ

أحسنُ ما فيــه أن تراه بين مهاةٍ وبين جــؤذَرْ

ينظر قوله : «لأنه فى الظبا منكر» إلى قول حبيب:

تعشُّقك الـكبارَ يدلّ عنــدِى على أنَّ الرحى قلبت ثِفالاَ[1]

وقال آخر :

لى فى أبى يحيى ومعشوقِــــه شغل على ذِى شغل شاغــلُ
يا ليت شعرى قــول ذى حيرةٍ مَنْ منهما المفعــولُ والفاعِلُ !

وقال ابن حصين فى محبوب صغير :

بأبى ظبى صغير السـنّ حازت ثلثَ سِـنِّى
سَرَّنى أن ليــس يدرِى مــذهبى فيــه وفَنِّى
فهــو يدعونى عَمًّــا وأنا أدعــوه بابْنى

وللخبز أرزىّ :

قالوا عشقتَ صغيراً قلت أرتعُ فى روضِ المحاسن حتى يُدرِكَ الثَّمَرُ[2]
ربيـع حسن دعانى لاتّباع هوًى لمّا تفتّح فيه النَّوْر والزَّهَرُ

وقال التَّنُوخى فى جَسيم :

من أين أستر وجدى وهو منتهَك ما لِلمتيّم فى نيل الهوى دَرَكُ[3]
قالوا عشقت عظيمَ الجسمِ قلت لهمْ الشَّمْس أعظم جسمٍ ضمَّه الفَلَكُ

وللفقيه ابن حزم :

وذى عذَلٍ فيمنْ سبانِى حسنُه يُطيل ملامى فى الهوى ويقولُ[4]:

---

(١) ديوانه ٤ : ٤٢٠ (طبع المعارف)
(٢) يتيمة الدهر : ٣٣٨ .
(٣) يتيمة الدهر ٢ : ٣١٨ .
(٤) الذخيرة ، القسم الأول ١ : ١٤٧

أفي حسن وجهٍ لاح لم تر غيرَه ... ولم تدرِ كيفَ الجسم، أنت قتيلُ!
فقلتُ له: أسرَفْتَ في اللَّوم ظاهرًا ... وعندىَ ردّ لو أردتَ طويلُ
ألم تَرَ أنّى ظاهِرىٌّ وأننى ... على ما بَدَا حتى يقومَ دليلُ!

وأحسنَ حبيبٌ حين قال:

قال الوشاةُ بدا فى الخدّ عارضُه ... فقلت لاتنكروا وماذاك عائبُه[1]
الحسن مِنْهُ على ما كنتُ أعهده ... والشّعر حِرْزٌ له ممّن يطالبُه
أحلَى وأعذب ما كانت شمائلُه ... إذْ لاحَ عارضُه واخْضرّ شاربُهُ
وصار مَنْ كان يلحَى فى مودّته ... إن سِيلَ عنى وعنه قال صاحبُهُ

وقال الحلوانىّ:

قالُوا التحى فامّحتْ بالشّعر بهجَتُه ... فقلت: لولاَ الدُّجى لم يحسن القمرُ[2]
خطَّت يدُ الحسن فيه فوق وجنتِه: ... هذِى محاسن - ياأهل الهوى - أُخَرُ

وله أيضاً:

لى حبيبٌ إذا شكوت إليه ... سامنى بالهوى عذاباً شديدَا[3]
لستُ أدعو بالشّعر غيظاً عليه ... خيفةً أن يكون حسناً جديدَا
غير أنّى أدعو بقلبٍ تريحٍ ... أن أراه مِثلى مُحبّاً عَميدَا

وقال غيره:

قدحلّ فى سوقكَ الكساد ... مذ لاَح فى خدِّكَ السَّوادُ[4]
كأنما الشّعر فيه زرعٌ ... والنَّتْفُ منه لَهُ حَصَادُ

(١) ديوانه ٤٣٢، وفيه: «لاتنكروا».
(٢) نهاية الأرب ٢: ٨٥، من غير نسبة الذخيرة ٤ ـ ١: ٢٢٠.
(٣) الذخيرة ق ٤ ـ ١: ٢٠٠ (٤) الذخيرة ق ٤ ـ ١: ٢٢٢ ونسبها إلى الحلوانى أيضاً.

وقوله :« ودواتى بالأقلام » ،أى ابتلاه الله أن يُلاط به ، قال الفنجديهىّ : أنشدنى بعضُ الشعراء بمرْورُوز لبعضهم :

دوادار الأمـــير له دواةٌ كمثل الياسمين بغير صُـــوفِ
يُرَى قلم الأمير يغوصُ فيهـــا مغاص عصيـــدةٍ فى حَلْق صوفِ

ونقل لفظ الدواة والأقلام من قول ديك الجن ؛ وكان يهوى غلاماً من حِمْص ، اسمه بكر ، فجلس معه ليلة يتحدّث بها حتى غاب القمر ، فقام بكر ليمشى ، فقال :

دع البدر فليغْرُبْ فأنت لنا بدرُ إذا ما تجلّى عن محاسنك الشَّعْرُ[1]
إذا ما انقضى سحر الذين ببابلٍ فأنت لنا سحرٌ وريقُك لى خَمْرُ

ولو قيل لى قُمْ فادع أحسنَ مَنْ ترى
لصِحت بأعلى الصّوت: يابَكْرُ يابكرُ !

وكان هذا الغلام شديد التصاون والتمنع ، فاحتال عليه قومٌ من حِمْص ، فأخرجوه إلى متنزَّهٍ ، فأسكروه وفسقوا به ، فبلغ ذلك ديك الجن فقال :

يا بكْر ما فعلت بك الأرْطَامُ يا دارُ ما فعلت بِـك الأيَّامُ[2]
فى الدار بعدُ بقيـــة نستامها أم ليس فيك بقيـــة تُسْتَامُ
شغَل الظَّلامُ كراكَ فى أبوابهم[3] فتفرّغَت لدواتك الأقْلاَمُ

وله فيه أيضاً :

قولا لبكر بن مهديٍّ إذا اعتكرتْ
عساكرُ اللَّيْل بين الطَّاسِ والجَامِ[4]

(١) الأغانى ١٤ : ٦٠ ، وفيه : « من محاسنك الفجر » .
(٢) الأغانى ١٤ :٦٢، وفيه : « مافعلت بك الأرطال » .
(٣) الأغانى: « فى ديوانه »
(٤) الأغانى ١٤ :٦٢ ، وفيه: « قولا لبكر بن دهمرد » .

ألم أقل لك إنَّ الكِبْرَ مَهْلَكَةٌ ... والْبَغْى والعُجْب إفسادٌ لأقْوَامِ
قد كنتَ تفرَقُ من سهم تعايِنُه[1] ... فصرت غيرَ رَميم رقعةَ الرَّامِى
وكنت تفزع من لمسٍ ومن قُبَلٍ ... فَقَدْ ذللتَ لإسراجٍ وإلجَامِ
إن تَدْمَ فحذاك من ركض فربَّتما ... أمسى وقلبى منك الموجع الدّامِى

قال أبو علىّ بن رشيق : كنت أوصى غلاماً وضيئاً ، كان يختلف إلىّ ، وأحذّره من كثرة التخليط ، فخرج يوماً فى جماعة من أصحابه ، فأوقِع به ، فأخبرت بذلك ، فقلت :

ياسوء ما جاءتْ به الحالُ ... إنْ كان ماقالوا كما قالوا
ماأحذق النَّاس بصوغ الخنا ... صيغ من الخاتم خَلْخَالُ

وهذا من قول ابن المعتزّ :

مَضَى خالدٌ والمال تسعون درهما ... وآب ورأس المال ثلث الدّرَاهِم[2]

وهذا المعنى الخبيث يتبين بعقد التسعين والثلاثين فى اليد .

وقال ابن رشيق :

سقطت ثنيّتُه فأوجِع قلبُه ... لسقوطها وجرى عليه عظيمُ[3]
فإذا مررتَ به فسلّ فؤاده ... عنها وقُلْ صبراً كذاك الريمُ
عجبا للؤلؤةٍ هوَتْ من سِلْكِها ... والسّلك لا وَاهٍ ولا مفصومُ
أتعدّياً يا خطبُ وهو مصوّن ... أبداً بخاتم ربّه مختومُ

(١) الأغانى : « لغانية »
(٢) نقله فى التنف ٥٨ .
(٣) نقله فى التنف ٦٥

ويستحبّ لمن وُسم بوَسْمة الجمال ، أن يكون شديد التصاوُن ، قليلَ التبذُّل ، فذلك أدْعَى للسلامة ، وقد قال ابن وكيع فى ذلك :

قالوا عشقت كثير البخل ممتنعاً ... فقلت : هيهات عنكم غاب أطيَبُهُ[1]
لو جاد هان ، وقلت الجود عادَتُهُ ... وإنما عَزَّ لَمَّا عَزَّ مطلبُـــهُ

فإذا تبذَّل وأجاب كلّ من دعاه صار عرضةً للظنون ، ونبتْ عن محاسنه العيون ، لأنّ النفس الحرّة لا تنفك من غيْرة ، وقد قال العباس بن الأحنف :

يا قومُ لم أهجـــرْ كمُ لملالةٍ ... مِنّى ولا لقالِ واشٍ حاسدِ[2]
لـكنّنى جـرّبتـكمْ فوجدتُـكمْ ... لا تصبرون على طعام واحدِ

وقال أبو الوليد بن حزم :

لمّا استمالك معشرٌ لم أرضَهُمْ ... والقول فيك كما علمتَ كثيرُ
داويتُ دونك مُهجتِى فتماسكتْ ... من بعد ما كادت إليك تطيرُ
فاذهب فغير جوانحِى لك منزلٌ ... واسمعْ فغير وفائِك المشكورُ

وله أيضاً :

يقول وقد لُمتُه فى الهـوى ... فلان،وعرّضت شيئاً قليلاَ :
أتحسدُنى؟ قلت:لا، والذى ... أحلَّك فى الحبّ مَرعًى وبِيلا
وكيف وقدحُلّ ذاك الإزارُ ... وقد سلك النّاس تلك السبيلا!

---

(١) يتيمة الدهر ١ : ٣٣٢

(٢) ديوانه ١٠٦ ، الزهرة ١٥٠ ، الأغانى ١٥ : ١٣٢ (ساسى) ، الشعر والشعراء ٧٩٢ .

وقال محمد بن السرىّ :

قايستُ بين جمـــاله وفعاله ... فإذا الملاحَةُ بالخيانةِ لا تَفِي[1]
والله لا كلَّمتُـــه ولو أنه ... كالبدْرِ أوكالشَّمس أوكالمكتَفِي

وقال آخر :

أيا حسناً أزرتْ قبائح فعـــله ... عَلَيْهِ كما أزرى الكُسوف على البدرِ
لقد فُقْتَ كلّ الناس حسناً وزينةً ... ولكنَّما قبَّحْتَ ذلك بالغـــدْرِ

وقال ابن عيينة :

ضيعتِ عهد فتًى لعهدكِ حافظٌ ... فى حفظه عجبٌ وفى تضييعكِ
إن تقتليه وتذهبى بفؤادِه ... فبحسن وجهكِ لا بحسن صنيعكِ

* * *

فقال الغُلامُ : الاصْطِلاَءُ بالبَلِيّة ، وَلا الإيلاءُ بهذهِ الأليّة ، والانقيادَ لِلْقَوَدِ ؛ وَلا الْحَلِفَ بِمَا لَمْ يَحْلِفْ به أَحَدٌ . وَأَبَى الشيخُ إلاَّ تَجْرِيعَهُ اليَمينَ الَّتِي اخْتَرَعَهَا ، وَأَمقَرَ لهُ جُرَعَها . وَلَمْ يَزل التَّلاَحِى بينهُمَا يَسْتَعِرُ ، ومَحَجَّةُ التَّرَاضِى تَعِرُ ، والْغُلامُ فى ضِمْنِ تأَبِّيهِ ، يَخْلُبُ قَلْبَ الْوَالِى بتَلَوِّيهِ ، وَيُطْمِعُهُ فى أن يُلَبِّيهِ ، إِلَى أنْ رانَ هَـوَاهُ عَلَى قَلْبِهِ ، وألَبّ بِلُبِّـهِ ، فَسَوَّلَ لهُ الْوَجْـدُ الَّذِى تيَّمَهُ ، والطَّمَعُ الَّذِى تَوَهَّمَهُ ، أنْ

---

(١) إنباه الرواة ٣ : ١٣٧ ، ابن خلكان ١ : ٥٠٣ ، وبعده هناك :

حلفت لنا ألاَّ تَخُون عُهُودنا ... فكأنما حلفت لَنا ألاَّ تَفِي

يُخَلِّص الغُلامَ وَيَسْتَخْلِصَهُ ، وَأَنْ يُنْقِذَهُ من حِبَالَةِ الشَّيْخ ثُمَّ يَقْتَنِصَهُ .

* * *

قوله : «الاصطلاء»، أى الاتصال والتلبُّس . والبلية ، أراد دعوة الباطل التى ادَّعى عليه الشيخ . والإيلاء : الحلف . والألِيَّة : اليمين . والقَوَد : قتل النفس بالنفس ، فيقول : الصبر على الضرب أو القتل أهون من هذه اليمين التى لم يحلف بها أحد اخترعها : استنبطها . أمقر : أمرّ ، من المَقْر ؛ وهو الصَّبر .

[من ألوانِ من الحلِف]

وهذه اليمين المخترعة ، حكى الأصمعىّ شبهها، فقال : اختصم أعرابيّان عند بعض الولاة فى دَيْن ، فجعل المدّعَى عليه يحلف بالطلاق والعَتاق ، فقال المدّعِى : دعنى من هذه الأيمان، واحلف بما أقول لك،فقال: ما قولك ؟ قال : قل:لاترك الله لك خُفًّا يتبع خُفًّا ، ولا ظِلفاً يتبع ظِلفاً ، وحتَّك من أهلِك وولدك ، كما يُحاتّ الورق من الشجر ؛ إن كان بَقِىَ لى هذا الحق قِبَلَك . فأعطاه حقّه ولم يحلف له .

وحكى المسعودىّ أنّ الفضلَ بن الربيع قال:صار[1] إلىّ عبدُ الله بن مصعب ابن ثابت بن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، فقال : إنّ موسى بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب قد أرادنى على بيعته ، فأخبرت الرشيد بذلك ، فجمع بينهما ، فقال الزبيرىّ لموسى : سعيتم علينا ، وأردتم نقض بيعتنا ودولتنا ، فقال له موسى : ومن أنتم ! فغلب الرَّشيدَ الضحك حتى رفع رأسه إلى السقف لئلا يظهر منه الضحك ، ثم قال موسى : يا أمير المؤمنين ، هذا المشنِّع علىّ، خرج مع أخى محمد على جدّك المنصور ، وهو القائل[من أبيات][2] :

قوموا ببيعتكم نهضْ بطاعتنا إنّ الخلافة فيكم يا بنى الحسنِ

(١) ط : « سار » ، وما أثبته من ا ، ب . (٢) من المسعودى .

وليست سعايتُه حبًّا لك ، ولا مراعاةً لدولتك ؛ ولكن بغضاً لنا جميعَ أهلَ البيت[1]، وأنا أستحلفه بيمين ، فإن حلف بها أنّي قلت ذلك ، فدمى حلال لأمير المؤمنين. فقال له الرشيد: احلف له ياعبد الله، فامتنع ، فقال له الفضل: لِمَ تمتنع وقد زعمتَ أنه قال ماذكرته؟ قال: فإني أحلف له ، قال موسى: قل: تقلّدت الحولَ والقوّة دون حول الله وقوّته إلى حولي وقوّتي ، إن لم يكن ماقلته حقاً . فحلف له ، فقال موسى : الله أكبر ! حدثني أبي عن أبيه ، عن جده ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما حلف أحد بهذه اليمين وهو كاذب إلاّ عجّل الله له العقوبة قبل ثلاث» ، وهأنذا بين يدى أمير المؤمنين فى قبضته ، فإن مضت ثلاث ولم يحدث له حادث ، فدمى حلال لأمير المؤمنين .

قال الفضل: فو الله ماصلّيت العصر فى ذلك اليوم ، حتى سمعت الصراخ من داره[2] . فدخلت عليه، فوالله ما كدت أعرفه : لأنه صار كالزِّق العظيم، ثم اسودّ حتى صار كالفحم ، فعرّفت الرشيد فى الحين ، فما انقضى كلامنا حتى عرَفنا أنه قد مات ، فبادرت بتعجيله ، وتولّيت الصلاة عليه. فلما وُورِيَ فى قبره انخسف به ، وخرجتْ رائحة مفرطة النّتن، ومرّت أحمال شوك على الطريق، فأمرت بها فطرحت فى قبره، فانخسف ثانية ، فأمرت بألواح ساج، فطرحت على قبره وألقى التراب عليها، وانصرفتُ ، وأعلمت الرشيد . فأكثر التعجّب، وأحضر موسى ؛ فأعطاه ألف دينار ، وقال له : لِمَ عدلت عن اليمين المتعارفة عند الناس ؟ فقال : أخبرت بالسند المتقدّم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من حلف بيمين كاذبة مجّد الله فيها ، استحيا الله من تعجيل عقوبته ، ومن حلف بيمين كاذبة نازع الله فيه حوله وقوّته إلّا عجّل الله له العقوبة قبل ثلاث[3] » .

* * *

قوله : «التلاحى»، السّباب والتشاتم . علىّ رضى الله عنه، قال النبى صلى الله

(١) بعدها فى المسعودى : « ولو وجد من ينتصر علينا جميعا لكان معه ، وقد قال باطلا»:
(٢) ب والمسعودى : « من دار عبد الله » .
(٣) الخبر فى المسعودى ٣ : ٣٥١ ـ ٣٥٣ .

عليه وسلم : «من لاحَى الرجال سقطت مروءته وذهبت كرامته ، ومازال جبريل ينهانى عن ملاحاة الرجال كما ينهانى من عبادة الأوثان ». وفى المثل: من لاحاك فقد عاداك .

يستعر : يتّقد . محجّة التراضى : أى طريق الرضا . تَعِرُ : تصعب . وفى ضمن تأبّيه ، أى فى أثناء كلامه وامتناعه . يخلِب: يخدع ويأخذ قلبه . تلوّيه: انعطافه. يطمعه : يدعوه للطمع . يلبّيه : يجيبه لمراده . وران : غلب وغطّى . أبو هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أذنب العبد نُكت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب صقلت ، وإن عاد زادت حتى تعظم فى قلبه ، فذلك الران » ، قال الله تعالى: ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾[1] .

ألبّ : أقام. لبّه : عقله : سوّل : زيّن . الوجْد : حرقة القلب. تيّمه : عبّده وذلّله ، والمتيّم : المستعبَد لهواه. توهّمه : ظنه . يستخلصه: يختصه لنفسه . حِبالة : آلة الصيد . يقتنصه : يصيده ؛ يقول : إنّ هذا الغلام فى أثناء كلامه بالتمنّع وترك الانقياد للشيخ يُطمع الوالى فى الانقياد له ، وإنه إذا دعاه لما يريده منه أجابه ، وإنما فعل هذا حين رأى إدامة نظر الوالى فى وجهه ، واستحسانه كلامه ، ولو فسّر الوالى حال الغلام بمنظومٍ لأنشد :

يهدِى لك الدُّرَ من لفظٍ ومبتسمٍ ... ضربان : منتثر منه ومنظُومُ
يجنى الذنوب، وأحنو أن أؤاخذه ... من أجل ذلك قيل الحسن مرحُومُ

ولأنشد إذا غلب عليه هواه :

مرآك مرآك لا شمسٌ ولا قمرٌ ... وورد خدّيك لا وردٌ ولا زَهرُ[2]
فى ذمّة الله قلبٌ أنت ساكنُهُ ... إن بنت بان فلا عينٌ ولا أثرُ
لولا محلّك من قلبى لما أسفتْ ... نفسى عليك ، فرفقاً أيُّها القمرُ

هذه الأبيات لأبى الوليد بن حزم ؛ وقد كرر معنى البيت الأخير فقال :

(١) المطففين ١٤ (٢) نفح الطيب ٤ : ٤ .

أذكيتَ من قلبي بنأيك لوعةً حتى خشيت على محلِّك فيهِ

ومما يتعلق بهذا المعنى قول الآخر :

ولمَّا رماني بالسهام تعمُّداً وفيها نصال الهجر حتى امتلا صَدْرِي
فقلت له لا ترمِ قلبي فإنهُ مكانُك والمرمىّ أنت ولا تدرِي

وقال آخر :

حملتُك فى قلبي فهل أنت عالم بأنَّك محمول وأنت مُقيمُ !
ألا إنَّ شخصاً فى فؤادى محلّه وأشتاقه ، شخصٌ علىّ كريمُ

وقال التّهامىّ :

قلبي فداؤُك وهو قلبٌ لم يزلْ تُذْكَى شهاب الشّوق فى أثنائِهِ[1]
جاورته شرّ الجوار وزرتهُ لمَّا حللتَ فناءه بفنائِهِ
حرِّق سوى قلبي ودعه فإننى أخشى عليك وأنت فى سودائِهِ

وقال آخر :

أودع فؤادى حرَقا أودَعِ نفسك تؤذى أنت فى أضْلُعِي
أمسك سهام اللَّحظ أو فارمِها أنت بما ترى مصابٌ مَعِى
موقعها القلبُ وأنت الذى مسكنُه فى ذلك الموضِعِ

* * *

فقالَ للشَّيْخ : هَلْ لَكَ فِيما هُوَ أَلْيَقُ بالأَقْوَى ، وَأَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ! فقال : إلَام تُشِيرُ لأقْتَفِيهِ ، وَلَا أَقِفُ لَكَ فِيه ؟ فقَالَ : أرَى أنْ تُقْصِرَ عن القِيلَ وَالقالِ ، وَتَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى مائةِ مِثقَالٍ ،

(١) ديوانه ٨٨ .

لِأتحَمَّلَ منهـا بَعْضًا ، وَأَجْتَبِيَ الْباقِيَ لَكَ عَرْضًا ، فقالَ الشَّيْـخُ : مَا مِنِّى خِلاف ، فلاَ يَكُنْ لِوَعْدِكَ إِخْلَافٌ ، فنَقَده الوالِى عِشرين ، وَوَزَعَ عَلَى وزَعَتِه تَـكْمِلَةَ خمسِينَ . وَرَقَّ ثَوْبُ الأصيلِ ، وَانقَطَعَ لِأجْلِهِ صَوبُ التَّحْصِيلِ ، فقال له : خُذْ مارَاجَ ، ودَعْ عَنْكَ اللَّجَاج ، وَعَلَىَّ فى غَدٍ أنْ أتوَصَّلَ ، إلى أنْ يَنِضَّ لكَ البـاقِى وَيَتَحَصَّل ، فقالَ الشَّيخُ : أَقْبَلُ مِنْكَ عَلَى أن أُلازِمَهُ ليلَتِى ، وَيَرْعاهُ إنسانُ مُقْلَتِى ، حَتى إذا أغْـفَى بَعْدَ إسفارِ الصبحِ ، بمَا بَقِىَ مِنْ مالِ الصُّلْح ، تَخلّصتْ قائبةٌ من قُوب ، وَبَرِىءَ براءة الذِّئب مِن دَم ابن يعقُوبَ ، فقال لهُ الوالى : ما أَرَاكَ سُمْتَ شَطَطًا ، وَلاَ رُمْتَ فَرَطا .

قال الحارث بن همام : فلَمَّا رَأَيْتُ حُجَجَ الشَّيْخ كالحُجَج السُّرَيجِيَّةِ ، عَلِمْتُ أنَّهُ عَلَمُ السَّرُوجِيَّة

* * *

قوله : « أليق » أى أشكل وأصقل . بالأقوى : بصاحب القوّة . والذى هو أقرب للتقوى ، هو العفو لقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أقرَبُ للتَّقْوَى ﴾[1] . أقتفيه : أتبعه . لا أقف لك فيه ، أى لا أتوقّف فيما تشير به . تقصر : تكفّ . عن القيل والقال ، أى عن كل كلام . أجتبى : أجمع . عَرْضا : كلّ ما ليس فيه روح من الأمتعة غير العين ؛ وهو ليس بنقد من السِّلَع التى يُتّجر فيها من متاع ورقيق وغيرذلك . أتحمّل : أضمن ، وفلان حميل بكذا ، أى ضامن له . إخلاف : كذب وعد . نقده : أعطاه نقداً . وزّع : فرّق . وزَعَتُه : شُرْطته الذين يكفون

(١) سورة البقرة ٢٣٧ .

عنه الناس ، واحدهم وازع مثل كافر وكفرة ، وقد وزعته وَزَعاً كففته ، وأيضاً دفعته .وقال الحسن البصرىّ رحمه الله: لابدّ للسلطان من وَزَعَة . الأصيل العشىّ . وثوبه:ضوء الشمس ، وهو فى ذلك الوقت رقيق.صَوْب : وقع،وصاب السهم صوبا وصيِّبًا : وقع بالرميّة،وصاب السحاب الموضع:أمطر.والتحصيل : أن يحصّل بقية المال . راج : حضر وتيسّر ، ويقال:راج الشىء رَوْجاً فهو رائج إذا جاء جاء سريعاً . قوله: « إنسان مقلتى»،أى سواد عينى .يرعاه :يحفظه وينظره. أعْفَى : أتى بالبقيّة ، والعفاوة : بقية المرق فى القِدْر . تخلّصت: انفصلت. والقائبة : البيضة . والقُوب : الفرخ ، وهذا مثل يضرب للرجلين يفترقان بعد الصّحبة ، وجاء مقلوباً لأن الذى ينفصل ويخرج إنما هو الفرخ من البَيْضة ، والقُوب ، من تقوّب الشىء إذا انتشر ، ومنه القوباء لداء الحِزاز[1] . وابن يعقوب هو يوسف عليهما السلام ، وبراءة الذئب من دمه ، هو ما يحكى أنّ إخوته لما جاءوا إلى أبيهم يبكون على يوسف ، علموا أنه لا يصدّقهم ، فاصطادوا ذئباً فلطّخوه بدم ، وأتوْه يبكون ، وقالوا له : هذا الذئب قد ضرِىَ ، أكل أغنامنا وأكَلَ يوسف أخانا ، قال لهم : أطلقوه ، ودعا الله يعقوب أن ينطقه له ، فقال للذئب: ادنُ منِّى ، فجعل يبصبص بذنَبه ويدنو منه ، حتى وضع خدّه على فخذ يعقوب ، فقال له : لِم أكلتَ ابنى ، وفجعتنى فيه ؟ فقال : لا والله يانبىّ الله ، ما رأيته ولا أكلته ، وإنى لغريب فى أرضكم اليوم ، وصلت من مصر فى طلب أخ لى فقدته ، فأوثقنى هؤلاء وساقونى إليك ، فقال لهم يعقوب عليه السلام : الذئب مع أخيه أوْفَى منكم مع أخيكم .

قوله:«سُمْتَ»: أى كلّفت . شطَطاً: شيئاً بعيداً ، والشَّطَط:مجاوزة القدر . ورمت فَرَطاً: طلبت شيئاً متفاوتا ، وكيف لم يسمِّه شططا ، وقد حرمَه لذة ليلةٍ مع هذا الغلام أحسن من ليلة الخفاجى[2] حيث يقول :

---

(١) فى القاموس : الحزاز ؛ كـكتاب : وجم فى القلب من غيظ أو نحوه .

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة الأندلسى ، صاحب الديوان المنسوب إليه .

وليلة طَلْقَةٍ قضَتْنِي من موعدٍ للحبيب دِينَا[1]
بتْنَا نجرّ الذيولَ فيها والخمر تمشى بنا الهوينَى
أرسل فى روض وجنتيْه لحظةَ عين تفيض عينَا
كأنمَّا اللحظ كيمياءٌ تُذهب من وجهه لُجَيْنَا
وما توهَّمت أنَّ طرفا يقلب عين اللجين عينَا

أو ليلة الآخر حين يقول :

لمَّا رأى مَنْ ظلتُ فيه متيّماً جسمى ضئيلا والفؤاد مولَّهَا
جادت شمائله علىّ بليلةٍ أهدت إلى الصبّ المعنّى ما اشتهَى
عانقت فيها البدْر ليلةَ تِمِّهِ يا من رأى بدراً يعانقه الشُّهَا !

[ذكر أحمد بن سريج أحد أئمة الشافعيّة]

قوله: «الحجج السُّريجية» منسوبة إلى أحمد بن سُريج، وهو من كبار أصحاب الشافعىّ ، وكان حسن الاحتجاج ، مليح المناظرة .

وقال الفنجديهىّ: السُّريجيّة منسوبة إلى الإمام أبى العباس أحمد بن عمر ابن سريج إمام أصحاب الشافعىّ على الإطلاق ، ومن لا نفسَت ذات دَرّ بمثله فى الآفاق ، حججُه فى أحكام الشرع أوضح الحجج، وأقواها وأمتنها على مرور الأيام والحِجَج، وكان يلقّب بالبازى الأشهب ، وبالشافعىّ الثانى ، لتبحّره فى استنباط المعانى ، من غوامض الأخبار والمثانى ، دلائله فى فنون العلم متينة، وبراهينه مبينة.

وقال: رأيت فى المنام كأنا أمطِرْنا كبريتاً أحمر ، فملأتُ كمّى وحجرى وجيبى منه ، فعُبِّر لى أنى أُرْزَقُ علماً غزيراً كعِزَّة الكبريت الأحمر .

وسُمِع يتمثّل بهذه الأبيات :

(١) ديوانه : ٣٤٠ ، المغرب ٢ : ٣٦٩

فلا تحسد الكلب أكلَ العظامِ فعند الحـــراءة ما ترحَمُهْ
تراه وشيكاً شكِسًّا إستهُ كلوما جناها عليه فَمُهْ
إذا ما أهان امرؤٌ نفسَـه فلا أكرم الله مَنْ يكرمُهْ

وكان يناظر محمد بن داود ، فقال له ابن داود يوما وقد أكثر عليه السؤال : أبلِغْنى ريقى ، فقال له : قد أبلعتك الدِّجْلة والفُرات[1] .

وقال له مرة : أمهلنى ساعة ، فقال : قد أمهلتك من الساعة إلى أن تقوم الساعة[2] .

وقال له ابن داود يوما : أكلِّمك من الرِّجْل وتُجيبنى من الرأس ! فقال له : كذلك البقر إذا حفيتْ أظلافها ، وهنت قُرونها .

واجتمع أبو العباس بن سُريج وأبو بكر بن داود الأصبهانىّ فى مجلس عيسى بن الجراح الوزير ، فتناظرا فى الإيلاء ، فقال ابن سريج : أنت بقولك : مَنْ كَثُرتْ لحظاته ، دامت حسراته ، أبصرُ منك فى الكلام فى الإيلاء ، فقال له ابن داود : لئن قلتَ ذلك ، فإنى أقول :

أنزّه فى روضِ المحاسن مقلتى وأمنع نفسى أن تنال مُحَرَّما[3]
وأحمل من ثقل الهوى مالو أنَّهُ يُصَبُّ على الصَّخْر الأصمّ تهدَّما
ويَنطِقُ طرفى عن مترجم خاطِرى فلولا اختلاسى رَدّه لتكلَّما
رأيتُ الهوى دعوى من الناس كلِّهِمْ فلستُ أرى حبًّا صحيحاً مسلَّما

وقال له ابن سُريج : بم تفتخر ؟ ولو شئت قلت :

---

(١) طبقات الشافعية ٣ : ٢٤ (طبع الحلبى) .
(٢) طبقات الشافعية ٣ : ٢٤ .
(٣) طبقات الشافعية ٣ : ٢٧ .

ومُساهِرٍ بالغُنْجِ من لَحَظَاتِهِ قد بتُّ أمنعُهُ لَذِيذ سِنَاتِهِ[1]
أصبُو لحُسْنِ كلامه وحديثه وأكرّر اللحَظات فى وجَنَاتِهِ
حَتى إذا ما الصبحُ لاح عموده ولّى بخاتم رَبِّه وبَرَاتِهِ

فقال له أبو بكر : أصلح الله الوزير ! يحفظ عليه ماقال ، حتى يقيم عليه شاهدين عَدْلين ، أنه ولّى بخاتمَ ربه وبراءته ، فقال له ابن سريج : فيلزمنى فى هذا مايلزمك فى قولك :

* وأمنع نفسى أن تنال محرّما *

فضحك الوزير ، وقال : لقد جمعتُما ظَرْفاً ولطفا وعلماً وفَهْماً .

اشتملت هذه الحكايةُ على أنّ هذين الرجلين العالمين على اشتهارهما بالعلم والفضل والدِّين كانا يرتاحان إلى التعشّق على سبيل التظرّف والتزام التعفّف على مايليق ويشكل بمنصبهما ؛ وإذا كان التّعشُّق بشرط العفاف ، فإنّما يزيد الرَّجُلَ الفاضل رقّة طبع ، وحلاوة شمائل .

وقال ابنُ سريج فى مَرَضه الذى مات فيه : أُريتُ فى المنام البارحة كأنّ قائلا يقول : هذا ربُّك يخاطبك ، فسمعته يقول : ماذا أجبتم المرسلين ؟ فقلت : بالإيمان والتّصديق ، قال : فقيل : ماذا أجبتم المرسلين ؟ فوقَعَ فى نفسى أنه يُراد منى زيادة فى الجواب ، فقلت : بالإيمان والتصديق ، غير أنا قد أصبنا من هذه الذنوب ، فقال : أمَا إنّى سأغفرها لك .

وتُوفّىَ لخمس مضين من جمادى الأولى سنة ست وثلثمائة ، وبلغ سنه سبعاً وخمسين سنة وستة أشهر ، ودفن فى حجرة بسويقة غالب ببغداد رحمة الله عليه .

[طائفة من شعر النسيب]

ونذكر الآن من نفيس الشعر المضمّن « مَنْ ظفر من محبوبه بمراده من

(١) طبقات الشافعية ٣ : ٢٧ .

الوصال ، ثم عفّ عما يخلّ بأهل الجلال » ، قال إدريس بن اليمان :

لم تدر ما خلّدت عيناك فى خَلَدِى ... من الغرام ولا ما كابدتْ كَبِدى
أفديك من زائرٍ رام الدنوّ فلم ... يسطعه من حُرَقٍ فى الدّمْعِ مُتّقِدِ
خاف العيون ، فوافانى على عَجَلٍ ... معطّلا جِيدُهُ إلاّ مِنَ الغَيَدِ
عاطيتُه الكأس فاستحيتْ مدامتُها ... من ذلك الشّنَب المعسولِ والبَرَدِ
حتى إذا غازلتْ أجفانَه سِنةٌ ... وصيّرته يدُ الصّهباء طوعَ يَدِى
أردتُ توسيدَه خدّى وقلّ له ... فقال : كفّك عندى أفضَلُ الوُسُدِ
فبات فى حرمٍ لا غدر يُزْعِجُهُ ... وبتُّ ظمآن لم أُصْدِرْ ولم أُرِدِ
بدرٌ ألمّ وبدرُ التّمّ منمحقٌ ... والأفق محلولكُ الأرجاء من حَسَدِ
تحيَّر الليل فيه ، أين مطلعُه ... أما دَرى اللّيل أن البدر فى عَضُدِى!

وقال الرّمادىّ :[1]

وليلةٍ راقبتُ فيها الهَوَى ... على رقيب غيرِ وَسْنَانِ
والرّاح ما تنزل عن راحتى ... وقتًا ومن راحة نَدْمَانِى
وربّ يومٍ قيظه منضجٌ ... كأنّه أحشاء ظَمْآنِ
أبرزَ من خدّيْهِ لى رشْحَهُ ... طَلاًّ على وَرْدٍ وسَوْسَانِ[2]
وكان فى تحليل أزْرَارِهِ ... أقْوَدَ لى من ألف شَيْطَانِ
فتحتُ الجنّة من جَيْبِهِ ... فبتّ فى جنّةِ رضْوَانِ
مروءةٌ فى الحبّ تنهى بأن ... يُجاهَرَ اللهَ بعصيان

وقال سعيد بن حميد :

زائرٌ زارَنا على غير وعدٍ ... أهيف الكَشْحِ ، مُثْقَلُ الأردافِ

---

(١) هو يوسف بن هارون الرمادى ؛ والأبيات فى المطرب لابن دحية ٤

(٢) الرشح : العرق ؛ والطل : قطرات الندى .

غالب الخوف حين غالبه الشَّوْ ق فأخفى الهوى وليس بخافِي
غضّ طرفى عنه تقى الله واختر تُ على بذله بقاء التَّصافِي
ثم ولّى والخوف قد هزّ عِطْفَيْ هِ ، ولم نَخْلُ من لباسِ العَفافِ

وقال بعض الطالبيين :

رموْنِي وإيَّاها بشَنْعاء هم بها أحقُّ ، أدال الله منهم وَعَجَّلاَ
بأمرٍ تركناه وربّ محمدٍ جميعا ، فإما عِفَّـــةً أو تحمُّلاَ

وسنزيد ما يستحسن فى العفاف وضده فى الثانية عشر .

قوله : « عَلَم السَّرُوجيّة » ، أى مشهورها . والعلَم : الجبل .

* * *

فلَبِثتُ إلى أنْ زَهَرَتْ نجومُ الظَّلامِ ، وَانتثَرَتْ عُقُودُ الزِّحامِ ، ثُمَّ قصَدْتُ فِناءَ الْوَالِي ، فإذا الشَّيخُ لِلْفتَى كالِى ، فنشَدْتُهُ الله : أهُو أبو زيد ؟ فقال : إى ومُحِلُّ الصَّيْدِ ! فقُلْتُ : مَنْ هذَا الْغُلامُ ، الَّذِى هَفَتْ لهُ الأحْلاَم ، قال : هُوَ فى النَّسَبِ فَرْخِى ، وفِى الْمُكْتَسَبِ فَحِّى ، قُلْتُ : فهَلَّا كَفَيْتَ بمحاسِنِ فِطْرَتِهِ ، وكفيْتَ الوالِيَ الافتِنانَ بِطُرَّتِهِ ! فقال : لَوْ لم تُبْرِزْ جبْهَتُه السِّينَ ، لَمَا قَنَفَشْتُ الْخَمْسِين ، ثُمَّ قالَ : بت الليلة عندِى انْطِفْ نَارَ الْجَوَى ، وَندِيلَ الْهَوَى من النَّوى ، فقَدْ أَجْمَعْتُ على أن أنسَلّ بِسُحْرَة ، وَأُصْلِىَ قَلْبَ الوَالى نَارَ حَسْرَة .

* * *

لبثت : أقمت. عقود : جمع عقد ، أراد ما يعقد من جموع النّاس فى الزّحام . انتثرت : افترقت . زهرت : أضاءت. الفِناء : ما حول الدار . ناشدته : سألته . هفت ، أى طارت. الأحلام : العقول. فطرته : خِلْقته. تبرز : تظهر. والطّرّة : قد تقدمت ، وشبّه اعتدالَ الشّعر على الجبهة بشكل السين على السّطر ، وأخذه من قول التّهامىّ :

يارُبّ معنًى بعيد الشأن نَسْلُكُهُ ... فى سلك لفظٍ قريب الفهم مُخْتَصرِ (١)

لفظٌ يكون لِعِقْدِ القول واسطةً ... ما بين منزلة الإسهاب والْحَصَرِ

إن الكتابة صارت تحت أُنملهِ (٢) ... والُجود فالتقيا منه على قَدَرِ (٣)

تردّ أقلامُه الأرماحَ صاغرةً ... عكساً ، كعكس شُعاع الشّمس للقمَرِ (٤)

وفى كتابك فاعذُرْ مَنْ يهيم بهِ ... من المحاسن ما فى أحسن الصُّوَرِ

الطِّرْس كالخدّ والنونات دائرة (٥) ... مثل الحواجبِ والسِّينات كالطُّرَرِ

ومن ملح الخبز أرزىّ :

وبنفسى من إذا خمّشتُه ... نثر الوردُ عليه وَرَقَهْ

وإذا مَسَّتْ يدى طرّتَهُ ... أفلتت منه فعادت حَلَقَهْ

أخذها من حكاية لعمر بن أبى ربيعة ؛ حدّث المغيرة بن عبد الرحمن ، قال :

---

(١) ديوانه ٤٥ ، وفيه : « أسلكه » .

(٢) الديوان : « سارت » .

(٣) الديوان : « فالتقيا فيه » .

(٤) بعده فى الديوان :

يجلُو بياضَ المعانى سودُ أحرفِها ... إنّ الظّلامَ ليجلُو رونق السَّحَرِ

(٥) الديوان « الطرس كالوجه » .

حججت مع أبي وأنا غلام ، عَلَيَّ جُمَّة[1] ، فجئت عمرَ فسلَّمت عليه ، فجلست عنده ، فجعل يمدّ الخُصْلة من شعري ثم يرسلها ، فترجع على ما كانت عليه ، ويقول : واشباباه ! حتى فعل ذلك مرارا ، ثم قال لي : يابن أخي ، قد سمعتني أقول في شعري : قالت وقلت ... وكلّ مملوكٍ لي حرّ إن كنتُ كشفتُ عن فَرْج امرأة حرام قطّ ، فسألت عن رقيقه ، فقيل لي : أما في الحوْك فسبعون سوى غيرهم[2] .

وساير عمرَ عُروة بن الزبير يحدِّثه ، فقال : وأين زين المواكب؟ـ يعني ابنه محمداً ، وكان يُعرف بذلك لجماله ـ فقال عروة : هو أمامك ، فركد يطلبه ، فقال له عروة : يا أبا الخطّاب ، أولسنا أكفاء كراماً لمحادثتك ! قال : بلى ، بأبي أنت وأمي ، ولكني مغرًى بهذا الجمال حيث كان ، ثم التفت إليه ، وقال :

إنّي امرؤٌ مُولَعٌ بالحسن أتبعُه ... لاحظَّ لي فيه إلاّ لذّةُ النَّظَرِ[3]

أخذه العباس بن الأحنف ، فقال :

أتأذنون لصبٍّ في زيارتِكُمْ ... فعندكم شهواتُ السَّمْع والبَصَرِ
لا يضمر السُّوء إن طالت إقامته ... عفُّ الضمير ولكن فاسق النَّظَرِ

[مما قيل في حلق الشعر]

ومما يتعلق بذكر الشَّعر حِلاقه ، والشعر فيه كثير ؛ فنلمّ منه باليسير .

وأول من قَرَع هذا الباب ـ فيما يذكر ـ القائل :

حَلَقُوا رأسَهُ ليكسُوه قُبْحاً ... خيفة منهمْ عليه وَشُحّا

---

(١) الجمة : شعر الرأس .
(٢) الخبر في الأغاني ١ : ٧٧ .
(٣) الأغاني ٣ : ١٤٦ ، ١٤٧ .

كان من قبل ذاك ليلاً وصُبْحاً فمحوْا لَيْلَهُ وأبقوْه صُبْحا

وقال أبو العباس القُرَيعيّ :

كان إلاّ قَمَرا تحتَ دُجًى فانْجَلى اللَّيلُ ولاح القمَرْ
أو كزهْرٍ فى كمامٍ كامنٍ شققتُ عنه فتمّ الزَّهَرْ

وقال أبو العباس بن حَيّون :

حلقوكَ فى تغيير حسنكِ رغبةَ فازداد حسنُك بهجةً وضِياء
كالخمر فُضّ ختامه فتشعشعتْ والشَّمع قُطَّ ذُبَالُهُ فأضاء

* * *

قوله: «قنفشتُ» ، أى أخذت بسرعة ، تقول : قفشت الشيء ، قفشا إذا جمعت عليه كفَّك بسرعة ، وقد انقفشت العنكبوت ، إذا دخلت حُجْرها .

قوله: «الجوى» ، أى مرض القلب. نُدِيل: نعوّض ، والإدالة: أن يكون الشيء لك مرة ولغيرك أخرى وهى من الدَّولة. النوى: البعد أو يريد: هلّم نجدّد المودّة فى هذه الليلة ، ويكون ذلك عِوَضاً من طول الفراق ، فقد عزمت على أن أنسلّ بالسَّحَر وأفرّ ، والانسلال: الخروج مستخفياً . أُصْلِى قلب الوالى : أجعله متحرّقا بالتحسر والتفجع .

* * *

قال : فَقَضَيتُ اللَّيْلَةَ مَعَهُ فى سَمَرٍ ، آنَقَ مِنْ حَدِيقَةِ زَهَرٍ ، وَخَمِيلَةِ شجر ، حَتّى إِذَا لَاحَ الأُفُقَ ذَنَبُ السِّرْحانِ ، وَآنَ انبلاجُ الفَجْرِ وحانَ ، رَكِبَ مَتْنَ الطَّرِيق ، وَأَذَاقَ الوالِىَ عذَابَ الحَرِيق ، وسلَّمَ إِلَىَّ سَاعَةَ الْفِرَاقِ ، رُقْعَةً مُحْكَمَةَ الإلْصَاقِ ،

وقالَ : ادْفَعْها إِلَى الْوَالِي إذا سُلِبَ القَرار ، وَتَحَقَّقَ مِنَّا الفِرَار ؛ فَفَضَضْتُها فِعْلَ المتملِّس ، مِن مِثْلِ صَحِيفةِ الْمُتَلَمِّسِ .

* * *

قَضَّيْت : أتممت . سَمَر : حديث بالليل يُسْمَرعليه . آنق : أحسن . حديقة : بستان ، ولا تكون إلا تحت حائط أو زَرْب . زَهْر : نَوْر . خميلة : روضة فيها شجر . لألأ : لمع وأضاء . الأفق : جهات السماء . ذَنَب السِّرْحان ، هو الفجر الكاذب ، وهو ضوء يظهر قبل الفجر دقيق متصعِّد إلى السماء . والسِّرْحان : الذئب ، شبّه ضوءه بذنبه . آن : حَانَ وقَرُب . انبلاج الفجر : ظهور ضوئه . متن : ظهر . الحريق : النار . سلّم : ترك . محكمة الإلصاق : متقنة الطيّ . القرار : السكينة ، يريد أنَّ الوالي إذا أخبر بَهَرِ بنا ذهب عقله ، فجعل يتململ ولا يقرّ . فضضتها : كسرت ختامها .

[ذكر المتلمس وصحيفته]

والمتلمّس ، شاعر مشهور ، اسمه جرير بن عبد المسيح ، وسمِّيَ المتلمّس بقوله :

فهذا أوانُ العِرْضِ جُنَّ ذبابُه زنابيرُه والأزرق المتلمِّسُ[1]

وهو مأخوذ من تلمّس الرجلُ الحاجةَ ، إذا طلبها سرًّا من غيره ، وأصل ذلك من اللَّمْس باليد ، كالذى يلمس بيده فى الظلام مواضعَ خفيَّة يطلب منها شيئاً ضاع منه ، أو كلمس الأعمى شيئاً بيده .

---

(١) الشعر والشعراء ١٣٣ ، قال فى شرحه : العرض : الوادى ، ويروى : « حمى ذبابه ».

ومن كلام عامّتنا: فلان يتلمّس، بسكون التاء، أى يَدخل بين الناس باستخفاء ولا يُشعَر به.

والمتلمّسُ أحد الثلاثة الذين اتفق العلماء على أنهم أشعر المقلِّين فى الجاهلية، وهم: المتلمّس والمسيّب بن عَلَس وحُصين بن الحَمام.

والمتمّلس، بالميم قبل اللام، هو المتخلّص الذى يطلب السلامة والخلاص بسهولة، وقد أملس إذا خرج من بين القوم هارباً وهم لا يشعرون، وقد أملس الشىء، إذا سقط من يدك ولم تشعر به لملاسته.

والصحيفة: الكتاب. وقصّتها [1] أن المتلمّس وطَرَفة كانا يتنادمان مع عَمْرو ابن هند ملك الحيرة - وكان سيّىء الخُلق شديده، وهو الذى حرّق من تميم مائة رجل، فهجوه، فقال فيه المتلمس - وكان طرده لشىء بلغه عنه:

أطردتنى حَذَر الهجاء ولا واللّات والأنصاب لاتئلُ [2]

أى لا تنجو.

وقال فيه أيضاً:

إن الخيانة والمغالةَ والخَنا والغَدْرَ نتركه ببلدة مفسدِ [3]
ملك يلاعب أمَّه وقطينها رِخْو المفاصل أيْرُهُ كالمِبْرَدِ
فإذا حللت ودون بيتىَ غَاوَةٌ [4] فابرِقْ بأرضك ما بدالك وارعُدِ

وقال طَرَفة:

فليت لَنَا مكان الملك عمرٍو رَغُوثاً حول قُبّتنا تَخُورُ [5]

---

(١) جمهرة الأمثال ١ : ٥٧٩ - ٥٨٢، الميدانى ١ : ٣٩٩.
(٢) الأغانى ٢٣ : ٥١٦ (طبع الثقافة ببيروت).
(٣) شعراء النصرانية.
(٤) غاوة: قرية من قرى حلب.
(٥) ديوانه ٩٠ - ٩٦، والرغوث: النعجة المرضع.

لعمرك إنّ قابوس بن هندٍ ليخلط ملكَه نَوْكٌ كثيرُ[1]

فى أبياتٍ شهرتُها تنبى وتغنى عن ذكرها ؛ فاستحيا أن يقتلهما بحضرته ، وبينهما إدلالُ المنادمة ، فكتب لهما بصحيفتين ، وختمهما لئلاً يعلما ما فيهما ـ هو أوّلُ مَنْ ختم الكتاب ـ وقال لهما : اذهبا إلى عاملى بالبحرين ، فقد أمرتُه أن يصلَكما بجوائز . فذهبا فمرّا بطريقهما بشيخ يحدِث ويأكل من خبز بيدِه ، ويتناول القمل من ثيابه ويقصعه ، فقال المتلمّس : ما رأيت شيخاً كاليوم أحمق من هذا ! فقال الشيخ : ما رأيتَ من حُمْقى ! أخرِج الداء ، وآكل الدّواء ، وأقتل الأعداء. ويروى: أقتل عدوًّا ، وأدخل طيّباً ، وأخرج خبيثا ، أحمقُ والله منّى مَنْ يحمل حتفَه بيده .

فاستراب المتلمّس بقوله ، وطلع عليهما غلام من أهل الحِيرة من كتّاب العرب ، فقال له المتلمّس: أتقرأ ياغلام ؟ قال : نعم ، ففكّ الصحيفة فإذا فيها : فإذا أتاك المتلمس فاقطع يديْهِ ورجليْه وادفنه حيًّا : فقال لطرفة : ادفع إليه صحيفتك ، فإنّ فيها مثل هذا، فقال طَرَفة : كلا لم يكن ليجترئ علىّ ـ وكان غِرًّا! صغير السِّنّ ـ فقذف المتلمس بصحيفته فى نهر الحيرة ، وقال :

قذفتُ بها فى الثُّنى من جَنْب كافرٍ كذلك أقنُو كل فظّ مضلّل[2]

رضيت لها بالماء لمّا رأيتُها يجولُ بها التيّار فى كل جَدْوَلِ

وأخذ نحو الشأم وقال :

ألقَى الصحيفة كى يخفّفَ رَحْلَه والزّاد حتى نعلَه ألقاها

أراد :أنه تخفف للفرار ، فألقى مالا يُثقِل ، وما لابدّ للسفر منه .

---

(١) النوك : الحماقة

(٢) الشعر والشعراء ١ : ١٣١ . الثنى : منعطف النهر . كافر : اسم علم لنهر الحيرة ، وأقنو ، أى أجزى .

وقال حين نجا :

مَنْ مبلغ الشّعراء عن أخويهِمَ ... خبراً فتصدُقَهم بذاكَ الأنفسُ[1]
أوْدَى الذى علقِ الصحيفة منهمَا ... ونَجَا - حِذار حبائِهِ - المتلمِّسُ
أُلْقِ الصحيفة ، لا أبالك إنَّمَا ... يُخشَى عليكَ من الحِبَاء النِّقْرِسُ[2]

وأما طَرَفة فوصَل إلى البحْرين ، فلما قرأ العامل صحيفته ، وسأله عن المتلمّس فأخبره بفِراره ، عفا عنه لصدْقه ورعايته لطابع الملك حيث لم يفكّه .

وقيل : إنه سَجَنه ، وبعث إلى عمرو بن هند ، وقال له : ما كنت لأقتُل طَرَفة ، وأعادى قبيلته ، فإذا أردت قتله ، فابعث إليه مَنْ يقتله . ففعل وخُيِّر فى قتله ؛ فاختار أن يُسقى الخمر ، ويُفصَدَ أكْحَلُه[3] ؛ ففُعِل به ذلك حتى مات نزفاً ، ودفن بهَجَر . وقيل فى قتله غير ذلك .

وقال البحترى يصدّق ما تقدم :

ولقد سكنت إلى الصدود من النَّوَى ... والشَّرْىُ أَرْىٌ عند طعم الحنظَلِ[4]
وكذاك طِرْفة حين أوجس ضربةً ... فى الرأس هان عليه فَصْدُ الأكْحَلِ

وقال ، وهو فى السجن يخاطب قومه :

أسلمنى قومى ولم يغضبُوا ... لسوءةٍ حلّت بهم فادحَهْ[5]
كلّ خليلٍ كنتُ خالَلتهُ ... لا ترك الله له واضِحَهْ
كلّهم أروغُ من ثعلبٍ ... ما أشْبَهَ اللَّيْلَة بالبَارِحَهْ !

---

(١) الشعر والشعراء ١ : ١٣١ ، ١٣٢ .
(٢) النقرس : داء معروف فى الرجلين ، وفسره فى اللسان ٨ : ١٢٧ بالداهية .
(٣) الأكحل : عرق فى اليد ، ويسمى عرق الحياة .
(٤) ديوانه ١٧٤٣ .
(٥) العقد الثمين ٥٤ .

وقال يخاطب عمرو بن هند فى السجن :

أبا منذرٍ كانت غروراً صحيفتى ولم أعطِكُمْ بالطَّوْعِ مالى ولا عِرْضِى[1]
أبا منذرٍ أفنيتَ فاستبْق بعضَنَا حَنَانَيْكَ بعضُ الشَّرِّ أهونُ من بَعْضِ

وقتِل وهو ابن عشرين سنة ، والعرب تقول : أشعر الناس ابنُ العشرين وتعنيه ، إلاَّ أنَّ أبا العباس أنشد لأخته ترثيه :

عَدَدْنَا لَهُ ستًّا وعشرين حِجَّةً فلما توفىَّ واستَوَى سَيِّداً ضَخْما[2]
فُجِعْنا به لمَّا رَجَوْنَا إيابَهُ على خَيْرِ حالٍ ،لاوليداًولاَ قَحْمَا[3]

وهلك المتلمّس فى الجاهليّة ببُصْرى.

* * *

فَإِذَا فيهَا مَكْتُوبٌ :

قُل لِوَالٍ غادَرْتُهُ بعدَ بَيْنِى سادِمًا نادِمًا يَعَضُّ اليَدَيْنِ
سَلَبَ الشيخُ مَالَهُ ، وَفتاهُ لُبَّهُ ، فاصْطَلَى لَظَى حَسْرَتَيْنِ
جادَ بالعَيْنِ حِينَ أَعْمَى هَواهُ عَيْنَهُ فانثنى بِلاَ عَيْنَيْنِ
خَفِّضِ الحُزْنَ يامُعَنَّى فما يُجْـ ـدِى طِلاَبُ الآثارِ مِن بَعْدِ عَيْنِ
وَلَئِن جَلَّ مَاعَرَاكَ كما جَلَّ لَدَى المسلمين رزءُ الحُسَيْنِ
فقدِ اعْتَضْتَ مِنهُ فهماً وحزماً واللَّبِيبُ الأريبُ يَبغِى ذَيْنِ
فاعْصِ مِنْ بَعدِهَا المطامِعَ وَاعْلَمْ أنَّ صَيدَ الظِّبَاءِ لَيْسَ بِهَيْنِ

---

(١) ديوانه ٢٠٩، ٢١٠ .
(٢) الكامل للمبرد ١ : ٢٥٨ . وروايته : « فلما توفاها » :
(٣) القحم : الرجل المتناهى سنا .

لَا ولا كلُّ طائرٍ يلجُ الفَسخَّ وَلَوْ كان مُحْدَقاً بالُّلجَيْنِ
ولَكَم مَنْ سَعَى ليصطادفاصطِ يدَ ولَم يَلْقَ غَيْرَ خُفَّيْ حُنَيْنِ

* * *

قوله : «غادرته» ، أى تركته . يعضّ اليدين : تندماً . سادماً : متغيّراً ، والسادم : المتغيّر العقل من الغمّ ، من قولهم : ماء سدِم ، ومياه سَدِم وأسْدام ، أى متغيّرة ، وقيل : السَّديم : الحزين الذى لا يُطيق ذهاباً ولا مجيئاً ، من قولهم : بعير مسدَّم ، إذا منِع من الضِّراب ، فكأنّ الحزين منع من الذهاب والمجىء ، فيقول : تركته يعضّ يديه تندماً وتلهُّفاً . اللظى : لهب النار ، وقد لظت النار : عَلاَ لهبُها ؛ فيريد أنّ الشيخ أخذ ماله والفتى عقله ، فاحترق بنار فَجْعَتَيْن جاد : سَمَح . العين : الذهب . هواه : تعشُّقه وميله : انثنى . رجع . بلا عينين ، أى بغير مال ولا بصر . خفّض : سكّن . معنًّى : معذَّب . يجدى : ينفع ، والعين ها هنا : الشخص .

* * *

[أصل المثل : طلب أثراً بعد عين]

وقولهم : طلب أثراً بعد عين ، كأنّ رجلا تمكّن من عدوّه أو مِنْ صيد ليرميَه ، فتراخى عنه حتّى فاته ، ثم شدّ فى طلبه بعد الفَوْت ؛ وأوّل مَنْ قال ذلك مالك بن عمرو العامرىّ ؛ وكان بعض ملوك غسان أخذه وأخاه سماكاً بسبب قتيلٍ كان له فى عمالته ، فحبسهما زماناً ، ثم قال لهما : إنى قاتلُ أحدكما ، فجعل كلّ واحد منهما يقول : اقتلنى مكان أخى ، فقتَل سماكاً وخلّى مالكاً ، فقال سِماك حين ظنّ أنه مقتول :

وأقسم لو قتلوا مالـكاً لـكنتُ لهم حيَّةً رَاصِدَهْ
برأس سبيل على مرقبٍ ويوما على طُرُقٍ وَارِدَهْ
أأُمَّ سماكٍ فـلا تجزعِي فللموتِ مَا تَـلِدُ الوَالِدَهْ

وانصرف مالك إلى قومه ، فلبث فيهم زمانا . ثم إن ركبا مرُّوا بهم وأحدهم يغنِّى بهذا البيت :

* وأقسم لَوْ قتلوا مالـكا *

فسمعتْ بذلك أمّ سماك ، فقالت: يامالك ، قبَّح الله الحياة بعد سماك! اخرج فى طلب ثأر أخيك ، فخرج فَلَقِيَ قاتل أخيه فى ناسٍ من قومه ، فقال : مَن أحسّ لى الجمل الأحمر ! فعرّفوه ، فقالوا له : لك مائة من الإبل ، وكُفّ عنه ، فقال : لا أطلب أثراً بعد عين ، فذهبت مثلاً ، ثم حَمَل على قاتل أخيه فقتله[1] .

* * *

قوله : «جَلّ» ، أى عظم . عراك : قصدك . رزء الحسين: المصاب بقتله حين قتل بكربَلاء .

[رزء الحسين *]

وحديثه أن معاوية لمـّا مات أرسل إليه أهل الـكوفة أنْ قد حبسنا أنفسنا على بَيْعتك. وطُولب بالمدينة أن يبايع يزيد ، فخرج إلى مكة ، وأرسل ابنَ عمّه مسلم ابن عَقِيل إلى الـكوفة وقال له : إن كان حقًّا ما كتبوا به ، فعرّفنى ألحق بك. فخرج من مكّة للنصف من رمضان ، وقَدِم [الـكوفة] لخمسٍ خَلَوْن

(١) جمهرة الأمثال ٢ : ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، وأورد فى معنى الأثر قول حبيب :
قالُوا أتبكى على رسمٍ فقلتُ لهمْ من فاتَهُ العينُ هَدّى شَوْقَه الأثرُ
(*) انظر خبر مقتل الحسين فى تاريخ الطبرى حوادث سنى ٦٠ ، ٦١ .

من شوّال ،وأميرها النّعمان بن بشير ، فدخل مستتراً ، فبايعه من أهلها ثمانية عشر ألفا . فكاتبه[1] بذلك. فلمّاهمّ بالخروج لقيه ابنُ عَباس رضى الله عنهما، فقال له: يا بنَ عمّ ، أهلُ العراق أهل غدرٍ ، وإنّما يدعونك للحرب ، فقال له : يا بنَ عمّ ، كتب إلىّ مسلم باجتماع أهل الكوفة علىّ ، فقال له : قد جرّبتهُم ، وهم أصحاب أبيك وأخيك . وقتَلتُك غداً مع أميرهم ، إذا بلغ ابنَ زياد خبرُك استفزّهم، فكان الذين كتبوا إليك أشدّ عليك عن عدوّك ، فإن أبيتَ إلاّ الخروج فلا تخرجَنّ بنسائك وولدك معك ، فإنّى لخائف أن تُقتَلَ كما قتل عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه . فردّ عليه : لأن أُقتَلَ بموضع كذا[2]، أحبُّ إلىّ من أن أُستَحَلّ بمكة .

واتّصل الخبر بيزيد ، فكتب إلى عُبيد الله بن زياد بتوليتهِ الكوفة . فخرج مسرعا ، فدخلها فى حَشَمه وهو ملثّم ، والناس يتوقّعون قدومَ الحسين ، فجعل عُبيد الله بن زياد يسلّم على الناس ، والناس يقولون : وعليكَ السلام يابنَ رسول الله ، قدمت خير مقدمٍ ،حتى انتهى إلى القصر .

فحسر اللّثامَ، ففتح له النعمان الباب ،وتنادى النّاس: ابن مَرْجانة ، فحصبوه بالحصباء ، ففاتهم . ووضع الرّصد فى طلب مُسلم ، فصاح مسلم : يا منصور — وكان شعارهم — فاجتمع له فى ساعة واحدة ثمانيةعشر ألفا . فأحاطوا بالقَصْر فقاتلوا ابنَ زياد ، فلم يُمسِ المساءُ ومعه مائة رجل. فلما رأى تفرّقهم سار نحو أبواب كِنْدة ، فبلغ الباب ومعه ثلاثة ، فخرج وليس معه أحد ، فبقىَ حائراً لا يدرى أين يتوجّه ، فنزل من على فرسه، ودخل أحد أزقّة الكوفة ، فانتهى إلى باب مولاة لمحمد بن الأشعث ، فاستسقاها فسقته ، وأعلمها حاله ،

(١) أى كاتب الحسين .

(٢) تاريخ الطبرى « فقال له حسين : إنى أستخير الله وأنظر ما يكون » .

فرقّت له ، فآوته وأعلمت محمد بن الأشعث بمكانه ، فمشى إلى ابن زياد ، فأعلمه ، فوجّه معه سبعين رجلا ، فاقتحموا عليه ، فقاتلهم مُسلم ، وأمّنه محمد بن الأشعث ، وحمله إلى ابن زياد فضرب عنقَه ، وبعث برأسه إلى يزيد بن معاوية ، فصلَب جُثّتَه .

وانتهى الأمر إلى الحسين ، وقد بلغ القادسيّة ، فهمّ بالرجوع ، فقال له إخوة مسلم : لا نرجع أو نُقتَل ، أو نأخذ بثأرنا ، فقال الحسين : لا خيرَ فى العيش بعدكم ، فسار حتى لَقِيَ خيلاً لابن زياد ، وعليها عمر بن سعد بن أبى وَقّاص ، فعدَل إلى كربَلاء ، وهو فى نحو خمسمائة فارس ، فلما كثرت العساكر أيقن أنّه لا محيص له ، فقال : اللهمّ احْكُم بيننا وبين قومٍ دَعَوْنا لينصرونا ، ثم هُمْ يقاتلوننا ! ثم خطب قومه فقال : يا عبادَ الله ، اتّقوا الله ، وكونوا من الدنيا على حذرٍ ، فإن الدنيا لو بقيت على أحدٍ ، أو بقىَ عليها أحد ، لكانت الأنبياء أحقّ بها وبالبقاء ، غير أنّ الله خلقها للفناء ، فجديدُها بالٍ ، ونعيمها مضمحلّ ، وسرورها مكفهرّ ، والدارُ قلْعة ، والمنزل تَلْعَة[1] ؛ فتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقوا الله لعلكم تفلحون .

ثم قاتل حتى قُتِل رضى الله عنه وفيه ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة ؛ وتولّى قتله سِنان بن أنس النّخعىّ ، واحتزّ رأسه ، وانطلق به مسرعاً إلى ابن زياد ، وهو يقول :

أوقِرْ ركابى فضّة وذهباً إنى قتلت الملكَ المحجّبا
* قتلتُ خير الناس أمًّا وأبا *[2]

وبعث معه الرأس إلى يزيد بن معاوية ، وعنده أبو بَرْزة ، فجعل ينكت بالقضيب على فيه ، وهو يقول :

نفلّق هاماً من رِجالٍ أعزّةٍ علينا ، وهم كانوا أعقّ وأظلَما[3]

---

(١) يقال : هو على قلعة ، أى على رحلة ، والتلعة : مجرى الماء من أعلى بطون الأرض والنزول عليه مخوف .

(٢) بعده فى الطبرى :
* وخيرَهُمْ إذْ يُنْسَبُون نسبا *

(٣) حصين بن الحمام المرى ، من المفضلية ١٢

فقال له أبو برْزة : ارفع قضيبك عن فمه ، فلقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يلثمُه .

وقتِل يوم عاشوراء سنة إحدى وستين ، وقتِل معه سبعة وثمانون ، منهم علىٌّ ابنُه الأكبر ، ومن ولد أخيه الحسن عبد الله والقاسم وأبو بكر ، ومن إخوته العباس وعبد الله وجعفر ومحمد وعثمان بنو علىّ ، ومن بنى عمّه جعفر ومحمد وعون أبناء عبد الله بن جعفر . ومن ولد عَقِيل عبدُ الله وعبد الرحمن وجعفر ، ودفنهم أهل القادسيّة بعد قتلهم بيوم ، وقتلوا هم من أصحاب عمر بن سعد ثمانية وثمانين .

* * *

قوله : «اعتضت» : اقتلعت من العِوَض . يبغى ذين : يطلب هذين . الظِّباء : الغزلان . يَلِج : يدخلُ . محدَقاً باللّجين ، أى محلّقاً بالفضة ، والصائد يفرّق حول الفخ حبَّ القمح وشبهه ، فيلقطه الطائر حتى يتوصّل إلى ما نُصِب له فيقع ، فقال : ما كلُّ طائر يُخْدَع ، ولو خُلِق له الفخّ بحبّ اللّجين بدلا من القمح ، وإنى من هذا الصنف .

قوله : « ولكم مَنْ سعى ليصطاد فاصطيد » ، من قول الصابى :

يا قمـــراً كالخشْف فى نظرتِهْ وكالقضيب اللَّدْن فى نُضْرَتِهْ
خِلتُكَ صيداً كان فى قَبْضَتِى فصرتُ من صيدِىَ فى قَبْضَتِهْ

والسابق له كعب زهير بن فى قوله :

طافَ الرُّماة بصيدٍ راعهم فإذا بعضُ الرُّماة بنبْل الصيد مقتولُ[1]

* * *

(١) لم يرد هذا البيت فى ديوانه ، وأورده الميمنى فى ملحق الديوان ٢٥٩ ، نقلا عن الشريشى .